

دراسة

Ali Abbas , an Iraqi life

علي عباس عمر عراقي

د. علي عباس



جاسد

منشورات جسد
JASAD PUBLICATIONS

علي عباس؛ عمر عراقي

د. علي عباس

رقم الايداع: 2022 / 1356

Isbn : 978-9922-9691-4-5

الطبعة الأولى - العراق - بغداد 2022

اصدارات جسد



jasad.library@gmail.com



+ 9647828424910

جميع الحقوق محفوظة، ولا يسمح بإعادة
اصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه
في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل
من الاشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر.

تنويه

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي دار النشر

علي عباس عمر عراقي

تأليف

د. علي عباس

بغداد 2022



منشورات جسد

JASAD PUBLICATIONS

إهداء

إلى الذين ولدوا في الصعب من الأقدار، ونشأوا
في شح من الحصار، بين الضيق ووشيك الدمار، في
أرض بلا إستقرار، فأمضوا نضرة أيامهم فلا رفاه،
وعز شبابهم بلا إرتياح، لكن رغم ذلك الجفاء،
وجدوا في أنفسهم من الإباء، ما إستنهضهم للفداء،
وحمل أبدانهم إلى سوح البذل رغم العناء، لأنهم رأوا
أن من أحبوا في معرض الأخطار، ومن أعزوا قد لا
ينجو ويُنال، فمضوا في الدرب غير مبالين بالمآل،
باذلين النفس فيها قبل المال، أيها الأبطال، أنتم
قدوتي كلما ما إشتد بي الضيق، أنتم نور دربي كلما
ضللت عن الطريق، ليتني مت معكم حينها عندما
إمتاز الحق عن السحيق، وقتلت بينكم عالما أنني
اخترت خير الرفيق، لكن بقيت اليوم بعدكم وعلى
الكاهل ثقل التضحيات، وفي القلب جزع العودة إلى

سابق الأمنيات، حيث نتكالب على الحياة، ونتشتت
بعد النجاة، فلم أجد غير أن أصير الحزن حروفاً،
وأدون حسراتي سطوراً، لعل في الذكر إستفادة، وفي
التعليم إستزادة.

لذا، إلى الذين توسدت حدودهم أرضاً شرفها
المبيت والخطي، إلى الذين سالت أوداجهم ليُروى
نهر الحياة بالمجد والعلا، إلى الذين تعالت أرواحهم
ليعيش من تحتها بالعز والمنى، إلى الكرماء، شهداء
شرع الإباء، وأمناء حل البلاء، إليكم

أهدي كتابي هذا

نبذة عن المؤلف

كإبن لسجين وحفيد لشهيد، ولدت في غياهب
الغربة على الأراضي التركية صبيحة الثامن والعشرين
من شباط عام 1997م، لكن ذكرياتي لا تبدأ إلا في
ألمانيا التي إنتقلنا إليها عندما كنت في سن الخامسة
مع أمي وأخي الوحيد وعشنا فيها مغتربين لثلاث
سنين من دون أبي، وعلى الرغم من أن لم شملنا بعد
ذلك على أرض الوطن في العراق عام 2005م كان
عليه أن يعوض عن مافات، إلا أن صفوه سرعان
ما تكدر بعمليات الإرهاب ومآسي التفجيرات التي
طحنت مدينتي طوزخورماتو وطالت بيتنا وبيوت
الكثير من الأهالي القدماء إلى أن وصلت ذروتها
بقدوم داعش ووقوفها على مشارف المدينة عام
2014م، ما أعقبه نزاع داخلي على سيادة المدينة
تركنا لسنين عدة إما في حالة من التوجس والقلق

أو في عيشة من الرعب والأرق.

أما فيما يخص الجانب المهني، فقد درست في جامعة كركوك وتخرجت منها عام 2021م حاملاً شهادة البكالوريوس في الطب والجراحة العامة، أتقن اللغة العربية، الإنكليزية، الألمانية، التركية فضلاً عن لغتي الأم اللغة التركمانية، أنا مولع بالكتابة ومغرم بنغم الألفاظ، كما وأعمل في المجال الثقافي كمؤلف وناشط، حلمي بأن أرى كل طفل وشاب يمتلك أفضل فرصة للتعليم بالحياة.

المقدمة

يطمح هذا الكتاب في مساعيه أن يقوم بكشف ودراسة بعض الحقائق التاريخية والمعاصرة من أجل الخروج بفكرة موضوعية عن جميع العناصر التي تجعل واقعنا بالشكل الذي هو عليه اليوم وما سيتجه المستقبل من مخرجات ونتائج على ضوء تلك العناصر، بعبارة أوضح، كتبت ما كنت أود أن يكتب لي عندما كنت في أول شبابي وهو : لماذا أعيش الحياة التي أعيشها اليوم وماذا ينتظرنني من مستقبل؟.

إن نتيجة التعرف على هذه الإجابات يرافقه إستحصال كمية من الفهم الإجتماعي والسياسي الذي يتمكن معه العراقي المعاصر من التحرك بمسؤولية ووعي نحو هدف بناء، من غير الإنجذاب نحو الأفكار المستهلكة أو الإنسياق خلف

السياسات المظلمة، ويوطّن لواقع بديل لا نرى فيه أشخاصا سقطت تحت قيادتهم مدن ومحافظات، يديرون البلد ويشاركون في الانتخابات، بينما يدفع الناس ثمن أشبارها بدماءهم وينزح الملايين مهجرين عن أوطانهم، بل نرى أن المسؤول يُدفع عن كرسيه ويُنزع من تفويضه، قبل أن يصاب إنسان بسوء، أو يتهدد بالفقر والجوع، وذلك يتحقق فقط عندما نتبصر بالواقع فنستوعب الظروف المحيطة بنا بدقة ونتحرك تجاهها بشكل واعي ومدروس، وهذا ما سنحاول التأسيس له من خلال هذا الكتاب.

لا يجب أن يُنظر إلى هذا المؤلف على أنه مدون تاريخي أو مكتوب للنقد السياسي، فعلى الرغم من إحتواءه على كم لا بأس به من الوقائع التاريخية المسجلة بترادف زمني وتفصيل يعتد به من التحليل النقدي، إلا أن البنية الأساسية وطريقة التبويب الموضوعي للكتاب لا يؤدي حق أي من هذين الصنفين، فهذا الكتاب هو في جوهره ذو مغزى فكري وإستقصائي، إذ يحاول البحث في كلا الجانبين مراعيًا مدعاة الفائدة والواقعية.

الآن وقبل الشروع بالبداية يجب التأكيد على أمر واحد ومهم، وهو أن الأحداث التاريخية المذكورة والتحليلات النقدية المعمولة عن أي جهة عرقية أو فكرية (دينية كانت أم سياسية) وخصوصاً أفعال الشخصيات التاريخية على مر الزمن، ليس المقصود منها أبداً الانتقاص أو الإساءة العينية لتلك الجهة أو الشخصية أيّاً كان، بل إن الهدف الوحيد هو التعلم والإستفادة من أفعال وأخطاء المجتمعات السابقة وأناسها، الأمر الذي لا يمكن أن يتحقق من غير تقديم عرض صريح وحوار واضح عن أفعالهم وتجاربهم.

وأخيراً أتمنى أن يساهم هذا الكتاب في أن نزداد بصيرة بالمستقبل وأن يتمكن شبابنا وأهلنا من أن يختاروا ويتصوروا لأنفسهم وللأجيال القادمة دربا أفضل وغداً أجمل.

تمهيد

يقدر المرء على أن يعلن اليوم بعناية، أن أغلب الشعب بلغوا من الكياسة، حداً لا نزاع فيما إذا كان العلاج خيراً أم الوقاية، عارفين أن وعي التجارب خير من محض الدراية، وأن تفادي الشر خير من أن يكون له بداية، لكن وعي التجارب في ماضي الأمر يحتاج إلى شرح و تعليم، والوقاية من سابق البلاء إلى كثير من الوعي والتنظيم، ومع أن لهذا السعي سعره، ولمثل هذا الجهد جهده، إلا أنني أؤمن بأن الأمور كانت لتختلف لو أدرك الناس والأمرء، بأن خيارات هذه الأرض كانت في ذاتها دوماً مصدراً للزوال والعناء، قبل أن يعاملها الإنسان بالعقل والدهاء، فإن أنهارها كانت لا نفع منها في السقي لسرعة الجريان، أو لضحالة العمق وكثرة التعرج والميلان، كما كانت على عكس النيل، مدمرة عند الفيضان،

حتى أوجد لها الإنسان جداول ونظمها في مساري،
ليستفيد منها كما يشاء، ويأخذ منها كما يرتاء. وكم
كنا ننظر إلى الحياة والسلطة بمنحى مختلف لو أدركنا
أن ما ننظر إليه على أنه تاريخ، مساره مدار تراوح
بين العز أو الإنهيار، بين حكومات حكمت الأقطار
أو إنتكاسات نتلمس لها إما اللوم أو الأعذار، ما
هو في ساحة الصدق إلا طيف واحد كلما إمتد ساد
إهمال للإنسان والمجتمع وإستبداد للمرء بفكره أو
عرقه، وكلما وصل إلى أوجه إنقلب إلى ضده، فنرى
أن الصراع الأعمى بين بابل والآشور، هو ما أطاح
بجمعهم وأزالهم بعد دهور، إذ أضعفهم عن إدراك
ما دار حولهم من أمور، ونذكر بأن حكم هارون
الذي يُنظر إليه على أنه أوج الإزدهار، كان هو
السبب الأول في أن يبدأ حكم بني العباس بالزوال،
وذلك حين قتل البرامكة الذين كانوا وزراء الدولة
وكفاءتها منذ أن برز العباسيون إلى الأنظار، لا شيء
إلا شعورا منه بالإستغناء والإقتدار، أو كيف كنا
لنعلل ونتفاعل مع فساد الفكر ومسببات الفتن،
لو علمنا أن حربا أهلية أشعلها إحراق ضريح أبي عبد

الله نشبت في بغداد قبل حوالي 800 سنة من تأسيس
بريطانيا وقبل أن تتواجد مدينة إسمها واشنطن،
حربا تشابه إلى حد مرعب تلك التي إندلعت بعد
تفجير العسكرين عام 2006م.

وأخيرا كيف كنا لننظر ونخطط لأنفسنا
وللمستقبل، حين نعي بعد التأمل، أن في تتابع
الأزمان كلها، كانت هذه الأرض إما من أقوى
الدول تحكم غيرها، أو كانت تابعة لدولة أقوى
تُحكم من عندها، إذ لم تكن يوما أرضا مستقلة تُترك
وشأنها⁽¹⁾.

كل هذه المعطيات وغيرها الكثير سيتم السعي
للإجابة عنها قدر الإقتدار، في قادم الصفحات
والأوراق، للخروج بفكر يحث على الأمل والعمل،
وإلى المضي قدما بما يزيح اليأس والكلل.

وعلة هذا العمل كله هو لأنني أؤمن بالإنسان
والحياة، وأؤمن أيضا بمستقبل أفضل وعمر أجمل،
وبأننا نملك ما يلزم للخروج من صورة الماضي
النمطية، ولنزع حلقة التاريخ التي إرتسمت على

(1) See John Robertson. Iraq : A History. 2015. Oneworld Publications. pp.205

أعناقنا لتشبه لعنة أبدية، آملاً بأن يتأسس فينا فكر
يعطي الإنسان وحقه قداسة وأسبقيّة ، ولو أكملت
هذا الكتاب بأذكار سوية، مخلصاً لهذا الفكر وحده
لغمرتني سعادة وأريحية، مدركاً بأنني عملت بها
أُوتيت من قدرة وقابلية، مجابهة قسوة الأيام بالرقّة
والروية، ومن عاشر الدهر يعلم أن هذا جل ما
يمكن للمرء أن يقدم للعالم من هدية .

علي عباس جلال

2022 / 2 / 28

الناس والأرض

وما بينهما

بادئ ذي بدء

قبل أن نشرع بإستذكار التأريخ أو نبداً بتحليل الحاضر، هناك قانون عام وسار على جميع المجتمعات البشرية في كل الحقب الزمنية، قانون من المهم أن نعيه ونضعه نصب أعيننا قبل الشروع بأي ذكر آخر، وهو يتلخص كالتالي : التوسع المدني و العادات الإجتماعية أو السلوك العام لأي مجتمع يحدده بشكل جذري الخيارات الاقتصادية وإمكانيات إستغلال موارد الطبيعة التي تتيحها الجغرافيا المسكونة من قبل ذلك المجتمع.

أي إن الطريقة التي يكسب أو تجبر جغرافيا معينة أن يكسب بها تجمع بشري ما قوته اليومي ودخله المعيشي، يحدد إلى حد كبير السلوك الحضاري والعادات الإجتماعية لذلك المجتمع، كما يساهم مدى وحدود إمكانية استغلال موارد تلك الأرض، في تحديد مدى إمكانية توسع وتطور ذلك المجتمع. هذا القانون سيتضح مفاده بإزدياد حين يعاد الإشارة إليه في الوقائع التي سنسردها لاحقاً، إلا أن من الضرورة أن يبقى دوماً في نظر الإعتبار، لكي يكون لنا من تفاسير الحاضر والماضي عظة وإعتبار.

من الصيد إلى السيادة

كان البشر يتواجدون قبل ما يزيد عن 12000 سنة على شكل تجمعات بشرية مبعثرة في عدة مناطق أغلبها في ما تسمى اليوم بمصر، فلسطين، سوريا والعراق وكانت تعتمد بشكل رئيسي على الصيد وزراعة بعض النباتات البرية في سد متطلباتها الغذائية، لكن كما يرى كثير من الباحثين فإن بعض التجمعات البشرية أُجبرت - بعدما بدأت درجات الحرارة على الكوكب بالارتفاع والموارد البرية والطبيعية بالإنخفاض - على الاستقرار في أراضيها وتطوير قابليتها الزراعية من خلال إجراء تجارب لزراعة وتكثير بعض الأشكال الأولية للحنطة والنباتات البرية، كما قاموا في الوقت نفسه بترويض بعض الحيوانات البرية - حينها - كالغنم والماعز، بعدها بدأت تلك المجتمعات التي لاقت نجاحا في ذلك باستبدال الصيادين والمتنقلين من البشر تدريجيا حتى أصبحت المجتمعات الزراعية في النهاية هي الشكل السائد للحياة العامة على الأرض وبدأت أولى القرى والمدن على وجه المعمورة بالتكون والتشكل.

لكن فيما يخص مناطق العراق⁽²⁾ فإن طبيعة هذا الإستقرار الزراعي والمدني حدث بشكل مختلف ومتباين عند المقارنة بين مناطق البلد المختلفة وخاصة بين شمال هذه الأرض وجنوبها.

ففي مناطق جنوب العراق لم تكن نسبة الأمطار كافية لدعم نشاط زراعي من أي نوع، مما جعل مجاري المياه العذبة والأنهار هي السبيل الوحيد لضمان ديمومة الحياة في هذه الأرجاء، لكن، ومع أن هذا القول قد يتعجب له القارئ المعاصر، إلا أن أنهار هذه الأرض بالنسبة لإنسان العصر القديم لم تكن أداة رحمة ومصدر لنعم وفيرة وإنما كانت قبل أن يبدأ بإعمال العقل في استغلالها مصدرا للدمار ومنبعا للزوال، فعلى العكس من نهر النيل في مصر الذي تميز بمنسوب ثابت ومستقر مع فيضان موسمي إنساب بلطف كل عام كنسيم الصباح ساقيا الأراضي المظلة على النيل ومشكلا ما يشبه نظاما إروائيا مجانيا إستفاد منه المصريون لآلاف السنين، لم يكن هناك في العراق شيء مستقر أو متاح

(2) يراد من لفظة -العراق- مجرد الإشارة إلى الأرض و الحدود الجغرافية لما يسمى اليوم بالعراق، لأن -العراق- كدولة لم تتأسس إلا بعد عام 1920م.

بالمجان في ما يخص نهري دجلة والفرات، حيث أن
نهر دجلة يمتلك مجرى عميقا ولذلك فإنه يجري
بسرعة كبيرة ومدمرة مما جعل مياهه غير قابلة
للإستغلال بواسطة تقنيات الري المتوفرة آنذاك،
وأما نهر الفرات فإن ضحالة واديه وقلة عمقه
قياسا بسهله المحيط، جعله مناسبا لإنشاء الجداول
عليه وسقي الأراضي منه، إلا أن ذلك جعله في
الوقت نفسه عرضة لاعوجاج جريانه وتغير مساره
بإستمرار وهكذا فإنه كان من المعتاد لقرية ما إستقرت
بجوار الفرات أن تجد نفسها بعد مدة معينة إما في
مجرى النهر ومعرضة للغرق أو بعيدة ومعزولة عن
الماء وبالتالي مجبرة على ترك الأرض والهجرة⁽³⁾. هذا
الواقع كان له دور كبير في تشتت وتنقل المستعمرات
البشرية الأولى في مناطق العراق المطلية على ضفاف
الأنهار وبالتالي أدى إلى تباين وإختلاف المجتمعات
البشرية التي ظهرت عليها لاحقا. إلا أن الانسان
(بالتحديد في الحضارة السومرية) إستطاع مع الوقت
أن يطور حلولاً لكلا المعضلتين من خلال بناء

(3) See Hans J. Nissen , Peter Heine . 2009 . From Mesopotamia to Iraq . The University of Chicago Press. pp.1-6

طرق ومسالك مائية محاطة بتل طيني للوقاية من الفيضان، تتوسطها وديان ومساري مناسبة العمق تتم صيانتها باستمرار⁽⁴⁾ - وبجهود دائبة وعسيرة - لإزالة الرواسب الطينية المصاحبة لماء النهر والتي تعرض تلك الجداول للإنسداد والفيضان.

إن تطوير هذه الطرق والجداول الإروائية مكنت الإنسان القديم من زراعة وإستغلال أراضي واسعة زادت من المحصول السنوي، ما جعل من الممكن إنتاج مردود زراعي يكفي لإعالة مجتمعات كبيرة نمت وتطورت لتصبح كما سماها عالم الآثار المبجل روبرت آدمس -قلب المدن- ومولد أولى المدن الحضارية، وليعد هؤلاء الذين طوروا هذه الجداول (الذين سماهم المؤرخون بال-سمارانين-) من أهم رواد الحضارة في التاريخ القديم.

أما في شمال البلد وعند سهل جبال زاغروس،

(4) تجدر الإشارة إلى أن مهمة إدامة هذه الجداول من قبل الحكام كان مرتبطا وعلى مر التاريخ بشكل مباشر مع مدى إستقرار وقوة السلطات الحاكمة، حيث أن إهمال صيانة وإزالة الرواسب الطينية إما بفعل الحروب أو بسبب الجشع والتركيز على الزرع والمحصول الناتج وحده، كان يؤدي دوما إلى إنخفاض المنتوج الزراعي في المواسم القادمة وبالتالي إلى زعزعة سلطة من يحكم تلك الأراضي والشعوب.

فقد كانت الأمطار الموسمية تهطل في أوقات ثابتة ومتكررة كل عام، وبكميات كفيلة بإنتاج بعض المحاصيل الزراعية بشكل مستدام، لكن على الرغم من تناسق وديمومة هذه الأمطار إلا أنها كانت محدودة في الوقت والكمية مما حدد كمية ووقت المحاصيل القابل إنتاجها من تلك الأمطار، فنتج عن ذلك أن نشأت في هذه الأراضي وعلى مر العصور مجتمعات فلاحية متواضعة يتميز أهلها بسبب نسبة الأمطار الثابتة وعدم الحاجة إلى التنقل بثبات الدخل المادي وترسخ العادات الاجتماعية لكن في الوقت ذاته بشحة العيش وقلة الزاد بسبب محدودية المحصول النباتي. إن أولى الشعوب التي إستقرت في هذه المناطق هو شعب الكوتيان الذي سكن أراضي جبال زاغروس حوالي سنة 3000 ق.م والذين إختلفوا إجتماعيا وسلوكيا بشكل كبير عن قاطني المدن المطلّة على دجلة والفرات، فكان سكان المدن ينظرون إليهم بعين الإختلاف والتخلف ويستخفون بهم لبساطتهم. شعب الكوتيان بدوره هو الآخر سعى للحفاظ على إستقلالته محاربا سلطة المدن

ولعب دورا مساعدا في إسقاط دولة أكد التي كانت وفق رأي الكثيرين أول إمبراطورية في التاريخ.

وهكذا فإن سكان هذه الأراضي وعلى مر التاريخ حاولوا دوما الحفاظ على إستقلاليتهم في الحكم والعيش وتميزوا بتركيبة إجتماعية وسلوكية مختلفة نشأت بسبب إختلاف طبيعة تحصيل المورد الإقتصادي كما ونوعا، مما أدى إلى ممارسات إجتماعية مختلفة وبالتالي الشعور بالفردية وعدم الإنتماء للغير كما وضحنا في القانون العام بداية هذا الفصل.

وبما أننا بدأنا بالتطرق لمناشئ الصراع وأسباب النزاع، لذلك سوف نلقي الآن نظرة عامة على حدود العراق لنفهم طبيعة هذه الحدود وتضاريسها ولنذكر ما الذي جعلها سببا في السماح بهذا الكم الكبير من التدخلات الخارجية والعدوان على مر التاريخ.

تحدثنا آنفا عن مناطق جبال زاغروس عند الحدود الشمالية الشرقية ووضحنا لماذا كانت المجتمعات المستوطنة لهذه الأراضي مختلفة عن سكان المدن المركزية ومعادية لهم في كثير من الأحيان، لذلك

سوف نتحرك منها جنوبا وباتجاه عقارب الساعة نحو الحدود الشرقية للعراق، حيث تنتهي السلاسل الجبلية ويبدأ سطح سهلي كبير ترتبط فيها الحدود العراقية مع مدينة خوزستان الإيرانية بـسطح مستوٍ واحد.

هذه الحدود كانت مشحونة وعلى مر التاريخ بأكثر الصراعات وموبوءة بأغلب الاختلافات قياسا بباقي المناطق الحدودية، ومع أنها اليوم تُستذكر على الأكثر مع أحداث الحرب العراقية-الإيرانية خلال 1980-1988 م إلا أنها كانت ساحة لأحداث أكبر من ذلك بكثير، فهذه الحدود كانت ساحة لمعارك دامية بين العثمانيين والصفويين لعصور متطاولة، ومن هنا إجتاح سيرس الأعظم بلاد ما بين النهرين حوالي سنة 539 ق.م واضعاً نهاية لحضارة بابل، بل وإن هذه البقعة الجغرافية كانت ساحة لأول معركة مسجلة في التاريخ بين مملكة إيلام وسومر حوالي سنة 2700 ق.م وبذلك فإن العراق لا يعد فقط مهداً لأول حضارة في العالم وإنما أيضاً ساحة لأول

حرب في التاريخ⁽⁵⁾، وأظن أن هذا مما يجب التأمل فيه والنظر إليه، وعلى العموم فإن هذه الحدود الشرقية كانت مشهدا لنزاعات أخرى كثيرة مما لا يسع التوسع فيه ضمن هذا المؤلف.

مع الإستمرار جنوبا فإننا نصل إلى شواطئ ومياه الخليج العربي المكونة لحدود العراق الجنوبية والتي بالرغم من أهميتها التجارية والإقتصادية، إلا أنها كانت في العصر الحديث بؤرة تدخل وتندفع منها موجات الإحتلال إلى داخل القطر، سواء تمثل ذلك في غزو 2003م، في عمليات عاصفة الصحراء عام 1991م أو في فترة الإحتلال البريطاني عام 1914م، كل هذه القوات الأجنبية إستعملت مؤانئ ومياه شط العرب والخليج لنشر وتوزيع قواتها داخل العراق.

وبشكل متصل مع الخليج وعلى طول المجاري المائية توجد أهوار واسعة دعت ومنذ آلاف السنين نشوء قرى صغيرة من سكان القبائل - الذين

(5) Joshua J. Mark. (2009, September 02). War in Ancient Times. World History Encyclopedia. Retrieved from <https://www.worldhistory.org/war/>

يوصلون حتى اليوم صيد الأسماك وتربية جاموس الماء والزراعة على نطاق صغير، وبسبب تباين وإختلاف نشاطهم الإقتصادي فقد تباينت ثقافتهم وسلوكهم الإجتماعي وبالتالي إختلفت توجهاتهم السياسية بشكل عام. وقد تم تصوير منازل القصب (المضيقة) والقوارب التي يستخدمونها في أعمال فنية يرجع تاريخها إلى 3000 ق.م. حوالي عام 1500 ق.م نشأت على هذه الأرض دولة صغيرة - مملكة سيلاندس - ، والتي كان حكامها يتنافسون مع ملوك بابل. وفي القرنين الثامن والسابع ق.م، كانت الأهوار مقراً للإنتفاضات السائدة ضد الإمبراطورية الآشورية، ومن بين النقوش الحجرية المنحوتة التي تزين جدران قصور الملوك الآشوريين هي مشاهد لشوار يختبئون في الأهوار. ومؤخراً، كانت الأهوار الجنوبية مأوى للمتفضين ضد حكم صدام حسين في عام 1991م.

وأخيراً إلى الجنوب الغربي، والغرب، والشمال الغربي من السهول الفيضية لنهر دجلة والفرات يقع الإمتداد الجاف والقاحل للصحراء العربية

السورية، التي كانت أرضاً لمجاميع من البدو الذين يكسبون لقمة العيش عن طريق نقل قطعانهم إلى المياه والمراعي المتاحة. ونظراً لنقص المياه والأراضي الصالحة للزراعة، لم تكن هذه المنطقة قادرة على دعم قيام أي دولة أو مملكة رئيسية بإمكانها أن تهدد المدن والدول المتمركزة في السهول الرسوبية. ومع ذلك، وفي بعض الأحيان، كانت الغارات والهجرات القبلية المنبثقة من شبه الجزيرة العربية تمر عبرها، وكان لها تأثير كبير على تاريخ العراق.

فيها من بعض الخير ما فاض، ومن بعضها هي خالي الوفاض

عندما يتم الحديث عن موارد العراق فإن أول ما يتبادر إلى الذهن هي الثروة النفطية التي تعد اليوم عصب الإقتصاد ومصدر التقدم، ومع أن هذا صحيح اليوم، لكن النفط وقبل إختراع محرك الوقود (أو ما يسمى بمحرك الحرق الداخلي) لم يكن ذات أهمية تذكر، بل في الحقيقة لم يكتسب نفط العراق بالتحديد أهمية إلا بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، أي بعد إختراع محرك الوقود بأكثر من نصف قرن وذلك لأن وقود وسائل النقل والصناعة كانت تستخرج في بادئ الأمر بشكل رئيسي من روسيا والولايات المتحدة الأمريكية وليس من الخليج أو غيرها من الدول. ورغم ذلك، فإن من الجدير بالذكر أن نفط العراق كان له إستخداماته، حتى في العصور القديمة. فمع أن التنقيب عن النفط وضخه إلى السطح لم يكن ممكناً ولا مرغوباً فيه في عصور ما قبل الحداثة، فإن برك القار (أحد الأشكال السطحية للبتروول) كانت منتشرة ومتواجدة في الكثير من

مناطق العراق. وقد وجد العلماء كلمات للمنتجات البترولية وذكر إستخداماتها في بعض أقدم سجلات العراق القديم ومن هذه الإستخدامات على سبيل المثال طلاء أحجار البناء ومواد التسقيف لجعلها مضادة للماء وما شاكل ذلك،

لكن إلى جانب وفرة مياه الأنهار مع خصوبة التربة والقصب في البيئات النهرية العراقية، فإن هذه الرواسب السطحية المحدودة للمواد البترولية كانت واحدة من المواد الخام القليلة التي إمتلكها العراق قديماً آنذاك، على الأقل خلال حقبة ما قبل العصر الحديث. فقد كانت مناطق السهل الرسوبي لبلاد الرافدين مجردة تماماً من الموارد والرواسب المعدنية الرئيسية: فلانحاس أو قصدير (مكونات البرونز، الوسيلة الأساسية لتكنولوجيا الأدوات والأسلحة في المنطقة من حوالي 3500 إلى 1000 قبل الميلاد)، ولا حديد (الذي حل محل البرونز بعد فترة 1200 قبل الميلاد كأهم معدن للتكنولوجيا).

وفضلاً على نقص المعادن فإن التربة الطينية الهشة لسهل الرافدين والخالية من الصخور الحجرية،

حالت دون إنشاء بنايات ضخمة ومعصرة كالأهرام التي بنيت في مصر، فإضطر الإنسان القديم في تشييد الأبنية إلى إستعمال كتل طينية مكعبة الشكل تجفف تحت درجات حرارة مرتفعة، مما يكسبها صلابة وقوة يؤهل إستعمالها كوحدات بناء في عمران الأراضي، أشكال مطورة من هذه التقنية (الطابوق) لا تزال إلى اليوم تستخدم بوفرة في جنوب العراق، مع إن تاريخ أول إستخدام لها يرجع الى 6000 ق.م. إذ تمتاز بقابلية عزل كبيرة لدرجات الحرارة المرتفعة والواطئة معا، لكنها في الوقت نفسه تتهدم بسرعة وتتطلب إدامة مستمرة، الأمر الذي كان سببا في زوال أغلب القصور والمعابد التي شيدها سكان الحضارة القديمة في العراق.

إضافة إلى ذلك فلم يمتلك سكان بلاد الرافدين الأخشاب الطويلة والمتينة المستمدة بشكل رئيسي من غابات الأرز والتي كانت ضرورية لإنشاء الأبنية الضخمة والمشاريع الكبيرة، وعلى الرغم من أن بعضا منها نمت على مرتفعات جبال زاغروس إلا أنها لم تكن كافية لدعم نشاط عمراني واسع النطاق.

هذا الإفتقار كله وهذه الحاجة بأسرها ألجئنا سكان بلاد الرافدين قديما إلى القيام بإستحصال هذه الموارد من المناطق التي تحيط بهم إما عن طريق التجارة - حيث كان الحكام المحليون وبفضل الفائض الزراعي والحيواني قادرين على تصدير الحبوب والمنسوجات الصوفية وحتى بعض المنتجات الفاخرة المصنوعة بأيدي حرفيين متخصصين، أو بإستعمال القوة وغزو تلك الأراضي لضمان السيطرة على مواردها. عموما فإن المعادن عالية الجودة وأحجار الأوبسديان التي كانت تصقل وتستعمل في صناعة وتطوير الأسلحة كانت تأتي من مناطق بعيدة داخل أراضي أناتوليا (تركيا الحالية)، وأما خشب البناء وأشجار الأرز فقد كانت تجلب من غابات سوريا ولبنان، حتى إن مصاديق هذا الفعل وجد سبيله إلى ملحمة كلكامش، إذ أن واحدة من أشهر القصص في هذه الملحمة التاريخية تتمحور حول الرحلة التي يتجه فيها كلكامش مع رفيقه أنكيدو نحو الغرب إلى بلاد خضراء وبعيدة ليقاتلوا فيها الكائن المريع خبابا - حارس غابات الأرز- الذي يُذبح أخيرا على

يديهما فيعودان بعد ذلك إلى مدينة أوروك حاملين معهم بعد إنتصارهم ألواح الشجر العملاقة التي إستأصلوها من الغابة إلى ديارهم. وفي هذه القصة إشارة واضحة إلى مرغوبة هذا المورد ومدى الحاجة إليه بالإضافة إلى طبيعة السبل التي كان يتم اللجوء إليها لجلب هذه الأشجار وتأمين إستحصائها.

هناك الكثير من الأمثلة الأخرى التي توضح كيف إن التحديات التي فرضتها نقص بعض المواد والمعادن الضرورية آنذاك من جهة والغنى غير المحدود بفضل الإمكانيات الزراعية من جهة أخرى كانت سببا في تكون عادات إجتماعية وتوجهات سياسية لدى شعوب بلاد الرافدين كالتمرس في التجارة أو الميل إلى الغزو والسيادة، لكن أظن أن ما ذكر إلى الآن، يجزي بالبيان.

وقفة تأمل وإستنتاج

إن إنفتاح ربوع العراق على أراضي منبسطة ومياه دولية بالشكل الذي جعلها متصلة بأكبر الدول وفي متناول أقدم الحضارات، مع وجود تناقض داخلي جمع بين وجود ثروات هائلة أتت من وفرة بعض الموارد كالمحاصيل الزراعية وبين شحة عقيمة رافقت خلو الأرض من المواد الصلبة والمعادن، جعل العراق ومنذ الأزل يدور في حلقة مفرغة تستقر على حقيقتين، في الأولى تغزو هي وتحتل لتحصل على ما لا تملك، وفي الثانية يحتلها الغير ويستعبدها طمعا في الكثير مما تمتاز به من أرض وزرع، وبين بدء الواحدة وإنهاء الأخرى ألوان من المعاناة، وظروف من القهر والإهمال، وربما كانت لدولة أخرى تمتلك بعضا مما يمتلكه العراق من خير ووفرة لكن تواجدت بعيدة عن الأنظار ومعزولة عن الأقطار، أن تبقى مستقرة مستقلة وأن تعيش هائلة مطمئنة، لأن موقعها الجغرافي يؤهلها لذلك، لكن هذا بالطبع لم يكن من حظ العراق ونصيبه.

هذه الحقيقة المرة طغت على صفحات الماضي

وسيطرت على مراحل التاريخ لبلاد الرافدين إلى الحد الذي جعل العراق موضعاً لم يتشكل فيه على مر التاريخ ولا مرة، دولة صغيرة مستقلة بذاتها لا شأن لها بغيرها وإنما كانت دوماً إما تتدخل في أمور غيرها أو يتدخل الغير في أمورها، لكن بعد فهم ذلك، هل يعني هذا أن بلاد الرافدين قدر لها أن تكون وتبقى إلى الأبد إما ظالمة أو مظلومة، وسيكولوجية أهلها مسجونة بين إنتحال صفة المعتدي ولعب دور الضحية، أليس هناك حل وسط، أليس هناك مستقبل لا يرى فيه نزاع قط، يهدى فيه البال، ويستقر عليه الحال. هذا ما سنحاول الإجابة عنه فيما بعد.

بعض النقاط على الحروف

سنوضح هنا باختصار منشأ بعض الأمور التي يعايشها إنسان العراق اليوم، كالأساس التاريخي لمفهوم القبيلة وأهميتها الاجتماعية وكذلك كيفية تكون فئات الشعب العراقي المعاصر، حتى يتسنى للقارئ أن ينظر في بحوث الكتاب القادمة بإمعان، دون أن يسمح لمبهات الحاضر بأن تعكر صفو المسير.

ينّا في بداية الفصل كيف إنتقل الإنسان من الصيد إلى الزراعة وكيف تكونت المجتمعات البشرية الأولى نتيجة لذلك. لكن إلى جانب ذلك نشأ حوالى سنة 6000 ق.م نمط ثالث من العيش، وذلك عندما بدأت بعض المجموعات بتطوير نمط حياة يشار إليه بإسم -الرحل الرعوي-، الذي يقوم أساساً على تربية قطعان من الأغنام والماعز وتحويلها من حيوانات برية إلى مستأنسة. ومن أجل ضمان غذاء كافٍ لمواشيها تنقلت هذه المجموعات وفقاً للموسم إلى المناطق التي يمكنهم فيها العثور على الطعام ، ففي الصيف، كان هذا يعني إصطحابهم للقطعان

إلى المناطق الجبلية وإقامة الخيام فيها، وفي الشتاء، كانوا يحزمون خيامهم ويجلبون قطعانهم من مناطق المرتفعات إلى الأراضي المنخفضة والسهلية.

وهناك كانوا على إتصال بالقرى الزراعية، التي كان سكانها يشعرون بالإحتقار لأسلوب حياة البدو، بسبب إختلاف الثقافة والأسلوب النابع من إختلاف منهج الإقتصاد وطرق كسب العيش (ما وضحناه مرارا)، وأيضا لأن غزو البدو للقرى كان حقيقة من حقائق الشرق الأوسط لآلاف السنين. ومع ذلك، فلولا المنتجات والخدمات التي قدمها البدو والمزارعين لبعضهم البعض، لما كان بإمكان أي منهما الإزدهار والتطور كما حدث. فمن قطعان الأغنام والماعز، أنتج البدو الصوف والجلود واللحوم ومنتجات الألبان وقدموها للقرويين لإثراء وجباتهم الغذائية وأسلوب حياتهم. كما قدم القرويون بدورهم للبدو الحبوب والمنتجات الزراعية الأخرى التي أكملت نظامهم الغذائي. لكن الأمر الأكثر أهمية بالنسبة للبدو هو أن القرويين سمحوا لهم برعي ماشيتهم على بقايا الحقول المحصودة،

والذي حصل المزارعون منها في المقابل على تسميد حقولهم بالسجاد الحيواني.

كانت حقوق الرعي هذه مهمة للبدو، لكن الخلافات حول هذه الحقوق بين البدو الرحل والمزارعين - أو بين مجموعات البدو المختلفة - كانت دوماً مصدراً للتوتر والصراع.

وكما تفاقت التوترات ونشب الصراع داخل هذه المجموعات، فإن المبدأ الأساسي الذي سعوا من خلاله في العادة لتحقيق العدالة والحفاظ على إمتيازاتهم، قد إرتبط إلى حد كبير بإنشاء روابط القرابة، أو بعبارة أخرى -روابط الدم-. حيث كانوا ينهون إتفاقياتهم وعهودهم الإجتماعية والإقتصادية ويوثقونها من خلال التزاوج وبناء صلة القرابة فيما بينهم، معتقدين بأن هذه أفضل طريقة للحفاظ على هذه العهود وللحيلولة دون النكوث عنها، وهكذا نشأ مفهوم القبيلة وظهر مسمى العشيرة من خلال تطور وإتساع هذا النوع من الممارسات.

ومع ذلك، فمن البديهي أن أولوية الولاء لصلة الدم ولدت مع تطور العيش وإتساع مفهوم المجتمع

واحدة من أعقد التوترات الاجتماعية والسياسية التي هيمنت على تاريخ العراق منذ بزوغ فجر الحضارة وإلى يومنا هذا.

وبما أننا ذكرنا مفهوم القبيلة، فسوف نشرع الآن بالحديث عن كيفية نشوء القوميات العراقية، مبتدئين بالقومية العربية. الكثيرون يعتقدون أن العرب في العراق ينحدرون من مهاجرين قدموا مما يعرف اليوم بالملكة العربية السعودية. إلا أن من الخطأ افتراض ذلك بشكل مطلق، فمع أن الناس كانوا بالفعل يهاجرون من شبه الجزيرة العربية إلى العراق في القرون الأخيرة لقبل الميلاد، وبالتأكيد غُيّرت ديموغرافية بلاد الرافدين في منتصف القرن السابع ميلادية بقدوم العرب إليها كجزء من الفتح الإسلامي. لكن عرب عراق اليوم يشملون أيضاً أحفاد العديد من المجموعات العرقية السابقة الذين اندمجوا مع السكان -العرب- على مر العصور من خلال تبنيهم اللغة العربية والجوانب الأخرى للثقافة العربية، مجموعات تحدثت أسلافها بلغات مختلفة، بعضها سامية متعلقة بالعربية كالبابليون

والآشوريون، الذين تحدثوا بلغة تسمى الأكديّة، وكذلك الآراميّون، الذين لا تزال لغتهم تستخدم اليوم في بعض المناطق النائية شمال العراق كجزء من طقوس الجماعات المسيحية القديمة جدًا هناك. والبعض الآخر - مثل السومريين والحثيين والكيشيين - الذين لم تعد تستخدم لغاتهم منذ آلاف السنين، تحدثوا بلغات لا علاقة لها بعائلة اللغات السامية على الإطلاق.

أما الأكراد فهم يشكلون ثاني أكبر مكون في العراق. تنتمي لغتهم إلى عائلة اللغات الهندو-أوروبية. لا يزال تاريخ أول وصول للأكراد إلى العراق موضع نقاش، لكن الأكراد ربطوا أنفسهم تقليديًا بالشعب القديم المعروف باسم -الميديين-، الذين ظهروا مع الفرس وبدأوا بالسيطرة على إيران حوالي سنة 1000 قبل الميلاد. لطالما إرتبط وجود أكراد العراق إرتباطًا وثيقًا بمناطق جبال زاغروس في شمال شرق العراق، حيث وُطنوا أنفسهم كمزارعين ورعاة وأصروا على حكم أنفسهم وفقًا لعاداتهم وهياكلهم الأسرية. لا ينحصر وجود

الأكراد على هذه الجبال من أراضي العراق وحسب، بل يتواجد الأكراد أيضًا في مناطق مجاورة جنوب شرق تركيا الحديثة، وشمال غرب إيران، وشمال شرق سوريا، والتي مالت أنظمتها المختلفة وعلى مر التاريخ إلى اعتبار الأكراد أقلية مظنية لجأوا ضدها في كثير من الأحيان إلى الإضطهاد والعنف لفرض سيطرتهم عليها ولقمع الحركات الكردية.

وأخيرًا فإن ثالث المكونات العراقية هم التركمان، الذين أنتجوا في وقت من الأوقات حكمًا تمكنوا من بسط نفوذهم على جميع أنحاء الشرق الأوسط وآسيا الوسطى. فبحلول منتصف القرن الحادي عشر، اجتاحت الجيوش القبلية التركية المسماة بالسلاجقة (تيمنًا باسم أحد خاناتها أو زعيم قبيلتها) العراق ومعظم أنحاء الشرق الأوسط، وبعد القضاء على الجيش البيزنطي في الأناضول عام 1071 م، أسس السلاجقة إمبراطورية شاسعة، تمكنت على رغم قصر أمدها من إبقاء السيطرة على الشرق الأوسط حتى حوالي 1100 م. بعد بضعة قرون من ذروة السلاجقة، قامت مجموعة تركية أخرى، مسماة أيضًا باسم أحد

زعماء قبيلتها الأوائل - عثمان - بتأمين السيطرة أولاً على شمال غرب تركيا، ثم الكثير من جنوب شرق أوروبا، وفي نهاية المطاف معظم الشرق الأوسط، بما في ذلك العراق. إستمرت الإمبراطورية العثمانية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى. أحفاد هؤلاء الأتراك الذين يعيشون اليوم في العراق هم التركمان. لغتهم، والتي تنتمي إلى عائلة لغات الآلتيك، لا علاقة لها بالعربية أو الكردية. يحتفظ تركمان العراق بإحساس قوي بالهوية العرقية والتضامن⁽⁶⁾.

(6) See John Robertson. Iraq : A History. 2015. Oneworld Publications. pp.115-148

من المهد إلى ...

التأريخ يبدأ في سومر

أو على الأقل هذا ما أعتقده بروفيسور الآثار صموئيل كريمر، الذي كان رائدًا للكثير من الإكتشافات التي صاغت وكونت معرفتنا المعاصرة لهذا الشعب القديم المعروف بسومر (في الحقيقة شومر، لكن جرت العادة على تسميتهم سومر) والذين ظهرت أوائل سنة 5000 ق.م.

أرض سومر كانت ممتدة بين ما هو اليوم مدينة البصرة جنوبا والشمال الغربي لمدينة النجف شمالا وعلى طول ضفاف نهري دجلة والفرات. هذه الجغرافيا كانت مولدا لما أعتقد أنها أولى المدن الحضارية كمدينة -أريدو- التي وقرها السومريون الأواخر على أنها أقدم مدينة من مدنها، كما كانت مولدا لمدينة -أوروك- (المسماة ب-أرش- في الإنجيل و-الوركاء- اليوم) التي تعتبر أقدس وأهم مدينة لسومر، إذ استمرت فيها الحياة لمدة مبهرة قاربت 5000 سنة، وبحلول سنة 3000 ق.م كانت أول مدينة عظيمة في التاريخ، حيث بلغ طول جدار التحصين المحيط بها حوالي 9.5 كم مغطية مساحة

تقدر ب 5.5 كم²، وهذا ضعف مساحة سور أثينا الذي بلغ 2.5 كم² فقط والذي لم يُبن إلا قرابة القرن الخامس قبل الميلاد، أي بعد الأولى بأكثر من 2000 سنة.

هناك الكثير من الأماكن الأخرى التي تعتبر جزءا من الحضارة السومرية والمسماة بأسماء مختلفة، إلا أن كثيرا منها وبالأخص المدن الصغيرة والقرى النائية كانت في الحقيقة مستقلة في الحكم والعيش وغافلة تماما عما يجري حولها من تغير الملوك وتعاقب في السلالات الحاكمة، إذ أن كثيرا من الناس الذين عاشوا في بلاد ما بين النهرين خلال حكم - على سبيل المثال - الملك الشهير حمورابي ملك بابل، لم يسمعون قط عن حمورابي وبالتأكيد لم يكونوا يعرفون أنهم كانوا يعيشون خلال ما يشير إليه العلماء بالفترة البابلية القديمة. قد يبدو هذا واضحا، لكنه يظهر مدى قلة أهمية ومصداقية العصور التي قسمنا إليها التاريخ، وعليه سنتجنب نحن أيضا هذه التقسيمات قدر الإمكان. من جانب آخر كشفت حفريات أجريت عند تل حموكار وتل براك، داخل الحدود

السورية الحديثة مع العراق، عن مستوطنات كبيرة (تلك التي في براك يزيد مساحتها عن خمسة وخمسين هكتارًا) مع وجود أدلة تشير على أن بقايا هذه المدن القديمة في الشمال تعود إلى أواخر الألفية الخامسة قبل الميلاد، مما يجعلها معاصرة للنمو الحضري في السهول الفيضية الجنوبية للعراق، إن لم تكن أقدم. وبالتالي، فإن الاكتشافات في تل براك تهدد بتغيير - ربما بشكل جذري - جميع القناعات السابقة عن أسبقية وألوية السهول الرسوبية في جنوب بلاد ما بين النهرين في نشأة المدن الأولى⁽⁷⁾. وعليه فمن المستحسن وبشكل عام أن نتجنب هذه القناعات عن التاريخ وعن الحياة بخصوص من هو الأقدم أو الأعرق، لأنهما في الحقيقة عمليتان حيويتان تتصل فيها الأجزاء ببعضها وتتطور بكليتها، معا وفي تآزر، حيث لا يوجد في التاريخ خطوط فاصلة وعصور صلبة تبرز فيها فئة واحدة من الأشياء وبلا مقدمات، لتقود البشرية وتجسد التطور الحضاري، فمع إن تباينا واختلافا في التقدم والتطور قد يتواجد بين مجتمع وآخر، ومع أن بعض الإنجازات قد تظهر وترى بشكل أوضح عند

(7) Andrew Lawler, -Murder in Mesopotamia?- Science 317 (2007), pp. 1164-1165

فئة معينة أكثر من الأخرى، إلا أنه ليس في التاريخ
من وجود لمجتمع وشعب يتطور وينمو بمعزل عن
الآخر وبإستغناء عن الغير، وهذا خلاف ما يحاول
اليوم كل شعب إثباته بالتلقين والترسيخ، مصرّة على
أنها الأولى والأخرى في مسرح التاريخ.

بداية ظهور العوائل الحاكمة

في خريف عام 2007م، تم وصف العراق بأنه -مجموعة من المدن مثل بغداد والموصل والبصرة والرمادي وأربيل وغيرها، يسيطر على كل منها أمراء حرب مختلفون مع ميليشياتهم الخاصة بهم مع كون القرى غير محمية تمامًا-. وبشكل مشابه كشفت السجلات المبكرة لتاريخ العراق القديم عن صورة للمدن السومرية كأوروك وإريدو وأور وأوما ولجش وكيش، لا تختلف كثيرا عن هذا الوضع: مجزأة، مفككة، مع مجموعات إجتماعية ومدن مختلفة تتنافس على النفوذ والسلطة⁽⁸⁾. هذا مهم جدا أن نلاحظه. لأن على ما يبدو فإن خلال أغلب تاريخ العراق، حتى منذ العصور الأولى، كان سكان كل مدينة مقتنعة بأنه في الترتيب الطبيعي للأشياء، يجب أن تدافع مدينتهم عن تميزها وإمтиازاتها الفردية والإجتماعية القائمة على القرابة العائلية وصلة الدم (كما أشرنا سابقا). وبالتالي، فهم غالبًا ما كرهوا رؤية مدينتهم مدرجة ضمن دولة أو إمبراطورية أكبر. فبالرغم من

(8) Nir Rosen- No Going Back- Boston Review , September-October 2007

أن السجلات المبكرة جدًا تدل على أن الناس قديماً كانوا مدركين لوجود وحدة جغرافية وثقافية شاملة يعيشون تحتها تسمى -سومر-: إلا أنه لم يكن هناك أي حاكم شامل لسومر.

وهكذا فإن كل مدينة كانت تحكم وتدار من قبل عوائل حاكمة منفصلة خلال فترة 2350-2900 ق.م تتولى كل منها مهمة إدارة السلطة وترأس إقامة الطقوس الدينية للآلهة، ومن الحكام الذين ينتمون إلى هذا العهد، هو الملك كلكامش حاكم مدينة أوروك والذي كُتب عنه الملحمة التاريخية التي تحمل إسمه.

بطبيعة الحال إشتدت المنافسة بسرعة فيما بين هذه المدن المستقلة حيث سعت إلى السيطرة على المياه والأراضي الصالحة للزراعة والطرق التجارية التي وفرت الوصول إلى الموارد الثمينة التي لم تكن متوفرة في سهل الرافدين، مثل الأخشاب والمعادن وغيرها. واحدة من أكثر الروايات شهرة عن الحرب بين المدن خلال هذه الفترة نجد أحداثها محفورة على -نصب نسر أناتم Vulture Stele of Eannatum-،

والتي سميت بذلك لأن أحد أكثر مشاهدها المعبرة
تصور النسور وهي تطير مع رؤوس جنود العدو
المقطوعة في مخالبها. هذا النصب التذكاري بناه
حاكم مدينة لجش -أناتم- الذي حكم حوالي
2450 ق.م، ليخلد إنتصاره على مدينة أوما. فعل
لا يختلف مبدئياً عن النصب الذي حاول صدام
من خلاله تخليد حربه ضد إيران عام 1980م، مع
فارق أن أناتم أراد من خلال تمثال النسور أن يمجّد
إله الحرب للغاش نينجريسوا، في حين أراد صدام
بذلك أن يمجّد نفسه.

وسط هذا النزاع كله تكمنت فئة واحدة فقط
من التفوق بشكل ملحوظ ونشر سيطرتها على ما
حولها من المدن لتكوين أول وجود واسع النطاق
ذات معالم دولة واضحة، هؤلاء هم -الأكديون-.

أكد وما أدراك من أكد، حقا من هم ؟

أهم حدث خلال فترة 2150-2350 ق.م يتمثل في صعود عائلة حاكمة تعود إلى أصول غامضة وغير معروفة سكنت مدينة أكاد شمال أراضي سومر، والذي إختار مؤسسها لنفسه إسم سرجون (أو شاروكين بمعنى -الملك الحقيقي-).

لجأ سرجون وأحفاده إلى إستعمال القوة العسكرية الغاشمة لإحتلال جميع مدن السهول الفيضية السومرية ومن ثم إبقاء السيطرة عليها. في بعض الأحيان، كان على ملوك أكد قمع التمردات التي قادها الزعماء المحليون للمدن السومرية المقهورة، الذين أصروا طوال تاريخهم على إستقلالهم وإمتيازاتهم .

إستطاع الأكديون لاحقا أن يسيطروا سيطرتهم على أراضي واسعة، إمتدت لتشمل بالإضافة إلى عراق اليوم، بقاعا من سوريا وإيران. لا زال العلماء في جدال حول مقدار الأرض التي إحتلوها بالفعل وكيفية إدارتهم لها. لكننا نعرف ما يكفي لنؤكد

أن سرجون وأحفاده فتحوا فصلاً جديداً في تاريخ العالم: لقد كانوا أول بُناة لإمبراطورية في العالم. لكن قرابة عام 2200 قبل الميلاد، بدأ حجم إمبراطورية ملوك أكد جزئياً بالتقلص وذلك على يد سكان الجبال المعروفين بإسم شعب الكوتيان، والذين اعتبرهم الأكديون -همجا- وغير متحضرين بسبب إمكانياتهم وثقافتهم البسيطة (كما ذكرنا في الفصل الأول)، إنحدر الكوتيان إلى السهول الفيضية من جبال زاغروس. ينسب الكثيرون إلى الكوتيين تدمير إمبراطورية أكد بالكامل أو على الأقل إضعافها بما يكفي بحيث لم تقم لها قائمة بعدها. مع أن مفهوم الخطر القادم من الشرق الجالب للويل والدمار هو من العناوين المتكررة في تاريخ العراق، إلا أن من سخرية القدر رؤية إمبراطورية بنيت على أفعال وحشية وهمجية، يتم القضاء عليها في النهاية بواسطة أناس اعتبرتهم هذه الإمبراطورية نفسها وحوشاً وهمج.

بابل من القبائل

حوالي مطلع الألفية الثانية ق.م قدم من الغرب إلى سهول الرافدين جنوب العراق شعب قدر له أن يلعب دورا كبيرا في تاريخ بلاد الرافدين، هؤلاء هم -الأموريين-، قبائل بدوية إعتاشت على التنقل ورعي الأغنام والماعز، وقد كان سكان المدن يعاملونهم على أنهم برابرة وحشيين وأنهم يشكلون خطرا على مدنيّتهم وحياتهم، كما نظروا إليهم أيضا بعين الإستصغار ساخرين من عاداتهم وطريقة لبسهم. لكن رغم ذلك إندمجوا هم وسكان المدن بمرور الزمن وتزاوجوا فيما بينهم - كإشارة أخرى إلى طريقة سكان بلاد الرافدين المعتادة في إدارة المصالح الإجتماعية ودرء الخطر عن طريق تكوين صلات القرابة - وهكذا أصبحوا مع مضيّ الوقت جزءا من مجتمع ميسوبوتاميا⁽⁹⁾ القديمة وأهلها. وعندما سقط ما تبقى من المدن الأكديّة، صعد الأموريين إلى السلطة وتولوا زمام الحكم ببسط سيطرتهم على أراضي واسعة من السهل الرسوبي

(9) من اللغة الإغريقية بمعنى - أرض ما بين النهرين -

لجنوب العراق ووسطه، وأطلقوا على أنفسهم إسم -البابليين- محافظين رغم ذلك على إحساس قوي بأصولهم القبلية شبه البدوية، حتى إن بعض الوثائق الأثرية تشير على أنهم أطلقوا على أسلافهم القدماء إسم -الملوك الذين عاشوا في الخيام- -.

وبحلول سنة 2000 ق.م ينقسم التاريخ الحضاري للعراق إلى قسمين : الأراضي الجنوبية تشهد صعود الحضارة البابلية ويطلق عليها إسم التاريخ البابلي، أما شمال العراق فيبرز منه أيضا مركز سياسي وتجاري عظيم آخر هي مدينة آشور، والتي لاتزال تُشار إليها حتى اليوم عند الحديث عن مدينة نينوى على أنها أرض الآشور أو الأسيريين. حكم الآشور أراضي واسعة شملت معظم شمال العراق وسوريا وأسسوا حضارة منيعة. السنوات الألف وخمسةائة القادمة من تاريخ العراق يطغى على ملامحها مجريات الصراع بين بابل وآشور - حتى أن وثائق مصرية قديمة تكشف عن إمتعاض ملك بابل من قرار الفرعون بضم الآشور إلى نادي البرونز الملكي وذلك لشدة عداؤه لهم -، إستمر هذا النزاع إلى

أن تمكن ملك بابل الكلداني أخيرا من إزاحة آخر
ملوك أسيريا، فقط ليتم إزاحة بابل هي الأخرى
بعدها بقليل من قبل غزاة جدد قدموا من فارس .
لذا يبدو أن لو فتح الإثنان أعينهم قليلا، مهتمين
بغير العداء بينهم والمضي تفتيلا، لكان خيرا لهم
وأشد تثبيتا.

لا يمكن الحديث عن بابل من غير حمورابي

لا شك أن حمورابي هو أهم ملوك الحضارة البابلية والذي خلال فترة حكمه من 1750-1795 ق.م صعدت بابل لأول مره إلى مسرح التاريخ محتلة مكانة سامية ورفعة فريدة بين الحضارات آنذاك وإلى يومنا هذا.

ورغم أننا نظن بأن سبب تميز ونجاح حمورابي هو على الأكثر قوانينه التي إشتهر بها - ما يصح إلى حد ما - ، إلا أننا نملك اليوم عدد من الرسائل -على هيئة ألواح طينية- بعثها حمورابي إلى ولايته في المدن الجنوبية والتي يظهر فيها كرئيس تنفيذي حريص ودقيق في إدارة الدولة، تقريبا إلى حد أصغر التفاصيل، متابعاً جميع نشاطات أتباعه ومستعداً للتدخل وإستلام زمام الأمور متى ما رأى أن الأمور تستوجب ذلك.

لكن مما لا شك فيه أن قانون حمورابي هو أكثر ما إشتهر به - وحقيق عليه ذلك - ، سواء بسبب الجدارة الفنية للمسلة المنحوتة من حجر الديوريت

والتي نُقش عليها القانون، أو بسبب ما نخبرنا به عن الحقائق الإقتصادية، البنية الإجتماعية، والمعايير المثالية للعدالة في العراق القديم، علاوة على صفات الحاكم البابلي المثالي.

وأهم ميزة في قوانين حمورابي هو ما يسميه خبراء القانون بالمبدأ التاليوني (أي قانون إسترداد الحق) الذي ينص بشكل مباشر : على أن العين بالعين والسن بالسن والحياة بالحياة، هذا على الأقل عندما تعلق الأمر بحياة الأحرار، فإصابة أو قتل العبيد كان يمكن أن يعوض عنه وقتها بالمال ! .

ومع ذلك، لم تكن قوانين حمورابي - كما يزعم الكثير - أقدم مجموعة قوانين في العالم. إذ يتواجد على الأقل مجموعتان من النصوص القانونية السابقة لحمورابي، تم الكشف عنها في وادي الرافدين. علاوة على ذلك لا يمكننا الجزم من أنها كانت في الحقيقة قوانين سارية ومعمولة بها في الأرض. إذ لم يرد ذكرها في أي من آلاف النصوص الأخرى التي تعود إلى هذه الفترة، بل إن بعض سجلات قضايا المحاكم من ذلك الوقت تحتوي على قرارات تتعارض مع

قوانين حمورابي، لكن بالرغم من ذلك فهي لا تقدر
بشئ عندما يأتي الأمر إلى إعانتنا على فهم ظروف
الحياة في العراق القديم وفي كونها نموذجاً للمثل
العليا ومبادئ القانون والعدالة في العصر القديم،
فهي علامة بارزة على الإنجازات الحضارية في
التأريخ البشري.

شهدت الفترة التي لحقت حكم حمورابي، إصابة
الدولة البابلية ببعض الضعف والهزل تحت إمرة
أحفاده. جزء منه بسبب بعض المعتدين مثل شعب
الهيتمي - القادمين من أواسط تركيا الحالية - وحاكمها
مورشيلي، الذي قاد جيشاً عام 1595 ق.م مهاجماً
بابل وناهبا إياها. إلا أن الباحثين إكتشفوا أن السبب
الرئيسي لهذا الوهن هو تغير كبير في مجاري نهر
دجلة والفرات، ما أدى إلى نزوح جماعي تُركت فيه
أغلب المدن السومرية القديمة خاوية على عروشها
لما يقارب المئتي سنة.

هذا يكشف عن أن قلب مزاج نهرى العراق
يبقى مدمراً وأهميتهما لا غنى عنه حتى بالنسبة
لإمبراطورية منيعة كبابل.

لكن هذا كله لم يمنع من إستمرار الحضارة البابلية
وتواجدها بصورة مبدئية لأكثر من ألف سنة أخرى
إلى أن جاء نهايتها أخيرا على يد الحاكم سیريس.

لا أهرام ولا عمران، في السابق أو الآن ؟!

نستطيع نحن اليوم، أي شعب العراق الحديث، أن ندعي ماضياً إمبراطورياً مجيداً ومزدهراً، لكن أيضاً مليئاً بالوحشية والإستغلال، مثل أي دولة عريقة أخرى. إذ كما ذكرنا سابقاً، كانت المدن العظيمة والحضارة العراقية القديمة مزدهرة حتى قبل أكثر من ألفي عام من عصر الإمبراطوريات القديمة في باقي الأرجاء. ومع ذلك كله، نجد أن بالمقارنة مع الإمتداد الشاسع للعمارة الفخمة في برسيبوليس الإيرانية أو المعابد الشاهقة في طيبة المصرية، فإن بقايا ذروة الإمبراطوريات العراقية القديمة أقل وضوحاً اليوم، وبالتالي أقل شهرة لدى الجمهور الغربي والعالمي. ويرجع ذلك جزئياً إلى أن الهياكل الكبرى لبابل في الجنوب العراقي كانت مبنية من الطوب والطوايق الطينية التي تحولت مع مرور آلاف السنين إلى أكوام من الخراب. أما في الشمال الآشوري، فقد بنى ملوك أسيريا في القرن التاسع والسابع قبل الميلاد قصوراً ملكية رائعة في عواصم إمبراطورياتهم، ولكن العديد من الأعمال الفنية

الأكثر إبهاراً وإشراقاً - كالتماثيل الضخمة والنقوش الحجرية المنحوتة بشكل جميل والتي كانت تصطف على جانبي جدران القصور - تم إقتيادها من قبل المكتشفين الغربيين، ليتم عرضها كممتلكات ثمينة في المتاحف الأوروبية والأمريكية، كما يقع بعضها الآخر في قاع نهر دجلة، وذلك بعدما غرق زورقان ملأهما الفرنسي فيكتور بوليس بالقطع الأثرية في غياهب النهر نتيجة التيار القوي.

أما في العقود الأخيرة فقد تعرضت القصور الآشورية للنهب مرة أخرى عن طريق التنقيب غير المشروع للكنوز، وفي الجنوب، تم تدمير موقع بابل بالكامل: أولاً على يد صدام حسين، الذي بنى قصره في منتصفها لربط نظامه بعصر قديم من العظمة، مما أتلّف إمكانية إستعادة الآثار، ثم بعد عام 2003م، من قبل الجيش الأمريكي، الذي أقام قاعدة عسكرية فوق الآثار القديمة مباشرة، حيث كانت عربات الهامفي والدبابات الخاصة بهم تسحق الآثار البابلية التي كانت لا تزال مدفونة تحت الأرض. بعض المراقبين العراقيين والأمريكيين رأوا في

ذلك محاولة متعمدة لفصل العراقيين المعاصرين عن جذورهم وماضيهم العظيم.

إن ما مكن كل هذا النهب والإهمال والتدمير لتراث حضارة بلاد الرافدين على مر الزمن يرجع إلى حد ما إلى إهمال السكان المحليين من العرب والأكراد لهذه الآثار منذ مطلع الألفية وإلى بعض القناعات المتشدة التي تصف هذه الآثار على أنها بقايا لعصور جاهلية ومِلل فاسدة غير جديرة باهتمام المؤمن الحقيقي.

إلا أن السبب الرئيس والأهم، بناء على ما لوحظ ولا زال يلاحظ اليوم في العراق من تكرار موضوع إهمال وتدمير الآثار والبنى التحتية للحكومات السابقة، القديمة منها والمعاصرة، هو أن تباين وإختلاف أعراق وأفكار الشعوب التي حكمت هذه الأرض، طور لدى سكان العراق على مر العصور، نزعة لإنكار الغير وإهمال الإنجازات الماضية - إن لم يكن تخريبها -، وذلك من أجل محو ذكرهم في حال كان السابقون أعداء حرب أو فكر، أو لكي يستطيع كل واحد أن يدعي بعدها بأنه هو الوريث الحقيقي

لهذه الحضارة والمنبع الوحيد لجميع إنجازاتها.

ومع إن هذا التعليل ينقصه بعض التفصيل والتحليل، إلا أن مشاهدات وآثار المشكلة واضحة، ونتائجها معاشة في كل زمان وفي جميع أرجاء العراق، ناتجا عنه واقعنا الذي نرجع فيه مع كل خطوة الى الأمام، عشر خطوات الى الوراء، كلما سقط حاكم قديم أو ظهرت دولة جديدة.

لذا يجب أن نعي أخيرا بأنه إذا أردنا أن نتقدم إلى الأمام وأن نتدارك ما فاتنا من الإزدهار والتطور، فعلينا أن نبني فوق ما لدينا وليس أن نهدم ما بين أيدينا، حتى وإن كان هذا الذي بين أيدينا من فعل أو بنية يذكرنا بالآم الماضي فيجرحنا، أو يجسد ظلم العادي في أعيننا، فالمجتمع كما الفرد لا يتقدم جراء نسيان الآلام أو الأخطاء وإبادتها، بل من التعلم منها محاولا في المستقبل تجنبها، وأما ما بني على الظلم وأموال المستضعفين، فالأفضل أن يبقى ويكون عبرة لنا على زوال الظلم وتقلب الأمور، وأن يسخر لخدمة المظلومين عائدا عليهم بعد شقائهم بالخير والنفع، بدل أن يُهدم ويُفنى، فيُحال إلى هباء الدهر، ويعد من فساد الفعل.

العراقي لا ينفع معه إلا القوة؟! آشور قد

تتفق

كانت آشور في البداية مجرد مقاطعة تابعة لبابل ثم لمملكة ميتاني خلال معظم الألفية الثانية قبل الميلاد. ظهرت بعدها كدولة مستقلة في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وفي الفترة اللاحقة أصبحت قوة كبرى في بلاد ما بين النهرين وأرمينيا وأحياناً في شمال سوريا⁽¹⁰⁾. تراجعت قوة الآشور بحلول عام 1000 ق.م لكن هذا التراجع كان وجيزاً، ففي أوائل القرن التاسع قبل الميلاد، قام ملكان ومحاربان كيران، آشور ناصر بال الثاني وشالمنصر الثالث (إمتدت فترة حكمهما بين 883-824 ق.م) ، بتوسيع بلاد آشور إلى الحد الذي أصبحت فيه أكبر إمبراطورية في التاريخ إلى ذلك الوقت، إذ إمتدت شرقاً حتى إيران، شمالاً إلى الأناضول، غرباً إلى البحر الأبيض المتوسط وجنوباً حتى مشارف بابل. وقد مهدت هذه الفتوحات المبكرة الطريق لغزوات أكبر كان

(10) Britannica, The Editors of Encyclopaedia. -Assyria-. Encyclopedia Britannica, 4 Mar. 2020, <https://www.britannica.com/place/Assyria>. Accessed 1 May 2022.

من المقرر أن يحققها أحفادهم خلال القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد. هذين الملكين حددا أسلوبًا للحكم الإمبراطوري الذي حتى اليوم، بينما يذهلنا بعظمته، يثير إشمئزنا أيضًا بوحشيته. سابقة مخيفة لما كان سيتبع من آلاف السنين التي يلجأ فيها كل من يحاول الإمساك بالسلطة في العراق إلى إستعمال أساليب القهر والإستبداد المستمدة من الصور التي إستخدمها الملوك الآشوريون.

الأول من بين هذين الملكين -آشورناصبرال- حكم خلال أعوام 859-884 ق.م أعاد فيها بناء العاصمة (نمرود) في أرض كالهو القديمة وأقام الكثير من المعابد، كما بنى فيها قصرًا مذهلاً. أما عن شخصه فقد وصف أفعاله المؤرخ ا.ت. اولمستيد بالرعب المخطط والمحسوب - كما وصفه ه.ت. هول بامتلاكه - طبيعة قاسية ومفنية ترد على كل معارضة بطريقة الإبادة الكاملة-، إذ -ليس من شفقة بشرية في صدر آشورناصبرال-⁽¹¹⁾.

(11) A. T. Olmstead, -The Calculated Frightfulness of Ashur Nasir Apal,- Journal of the American Oriental Society 38 (1918); H. R. Hall, The Ancient History of the Near East: from the Earliest Times to the Battle of Salamis (11th ed.) (London: Methuen & Methuen, 1950), p. 445.

وحجم هذه الوحشية يمكن أن تفوق أحيانا قدرتنا على التخيل، على سبيل المثال، يتفاخر آشورنا صربال بفعله عندما رفضت إحدى المدن الخضوع له :

لقد سلخت جلود النبلاء (أي فصلتها وهم أحياء) الذين إنتفضوا ضدي ثم نشرت جلودهم على كومة الجثث، بعضهم صلبت فوق الأعواد، لقد سلخت الكثيرين في أرجاء مملكتي ونشرت جلودهم على الجدران.

لقد أحرقت 200 من الأسرى وسلخت 50 من المحاربين، لقد هزمت 332 كتيبة ثم صبغت بدماءهم جبلا حتى صار لونه كالقطن الأحمر. لقد حملت أسراهم سبايا فقطعت رؤوسهم وبنيت بها برجاً قبل المدينة. لقد قتلت مراهقيهم من البنات والأولاد.

إستمرت هذه المعاملة الوحشية للأعداء والرعايا المتمردين كسمة من سمات الإمبريالية الآشورية حتى نهاية الإمبراطورية. فنجد سنحاريب، أحد

الملوك الآشوريين اللاحقين، في رواية مكتوبة بخط
مسماري على جدار قصره في العاصمة نينوى، يصف
كيفية تدميره لجيوش مملكة إيلام:

لقد مزقت حناجرهم مثل الحملان
وقطعت أرواحهم الثمينة كما يقطع
أحدهم خيطًا. ثم صنعت من أمعائهم
وأحشاءهم نهرا يتدفق على الأرض
الواسعة مثل مياه السيل. لقد رقصت
بخيولي المرسجة فوق أشلاءهم وغمست
حوافرها في مجاري دمائهم. عجلات
عرباتي كانت في ساحة الحرب ملطخة
بدمائهم وقذارتهم، حيث تملأ جثث
المحاربين أرض السهل مثل العشب.⁽¹²⁾

حتى إن أحد آخر ملوك الآشور وربما أعظمهم
-آشوربانيبال- يروي معاملة مشابهة لأجساد وقبور
ملوك إيلام بعد هزيمته لهم وإحتلاله إياهم :

(12) Luckenbill, Daniel David, Ancient Records of Assyria and Babylonia, Vol. 2. Historical Records of Assyria from Sargon to the End. London: Histories & Mysteries of Man, 1989 [1926].p.127

أما قبور ملوكهم السابقين واللاحقين،
الذين لم يخافوا آشور وعشتار، سادة
بلدي، فقد دمرتهم، أفنيتهم، عرضت
أجسادهم للشمس وحملت عظامهم
إلى آشور. لقد رسمت الذل على
ظلال وجوههم. لقد حرمتهم من
عروض الطعام ومن تذوق الماء.

الأساس الكامن وراء هذه الممارسات، فضلا على
إثبات سيادة آشور، كان إثراء نظام الحكم والدولة
من خلال إستغلال الموارد الطبيعية والبشرية
للأراضي المحتلة، والتي لم يكن لدى الآشوريين
أي مانع من سلبها ونقلها إلى آشور. وبالتالي، فإن
الحكم الآشوري لم يجلس على عرشه بسهولة، فتأريخ
الإمبراطورية مليء بمحاولات الرعايا المتمردين
للتخلص من طغيان الآشوريين.

وإذا تراءى بعد الذي أوردناه بأن سلطة الآشور
وسطوتهم نبعت من تلك الأفعال الوحشية وإن
إستمرار حضارتهم لما يقرب 300 سنة هو نتيجة
هذه الممارسات المجنونة، فإن هذا أبعد ما يكون

عن الواقع، لأن السبب الحقيقي وراء ذلك هو أن آشور، في أوجها، لم تكن إمبراطورية شاسعة فحسب، بل كانت مملكة منظمة بشكل إستثنائي ومقسمة إلى مقاطعات يحكمها بشكل مباشر حكام آشوريون، بالإضافة إلى دول تابعة يشرف عليها بشكل غير مباشر حكام محليون تابعون أقسموا على دعم الملك الآشوري بالولاء والإشادة والقوى العاملة. كما دفعوا أيضا أجورا للمفتشين والجواسيس لتوفير المعلومات الإستخبارية والإحاطة بالشأن الداخلي. كما قرروا إرسال عملاء ملكيين عبر الإمبراطورية لجمع الآلاف من الألواح المسماة وإحضارها إلى نينوى. إحتوت هذه الألواح معًا على التقاليد المتراكمة لقرون من العلوم والأدب والدراسات القديمة لبلاد الرافدين. إذ شكل إرشف القصر الذي ورثه آشوربانيبال عن جده وأبيه، والأرشف الذي أنشأه في قصره الجديد، مع مكتبة معبد الإله نابو (راعي الكتابة والعلم)، والمكتبة التي أنشأها هو، تجمع التراث الفكري الأكبر والأكثر شمولاً في العالم حتى ذلك الوقت. تتواجد بقاياها اليوم

بشكل رئيسي في المتحف البريطاني في لندن⁽¹³⁾.

أما أساليب القتل والإستبداد التي إنتهجتها الحضارة الآشورية فمع أنها خدمت في بادئ الامر كطريقة سريعة وفعالة لضمان أكبر قدر من السلطة والقوة بأقل جهد ومنافسة. إلا أنها انعكست على المدى البعيد لتجعل من آشور في أعين المجتمعات القديمة عاصمة الشر والطغيان على وجه الأرض، وأدت بمرور الوقت إلى تراكم الغل والحقْد في قلوب الناس على ما أنزله الآشوريون بهم من ذل وفضاعة، فأفعالهم الشنيعة المتمثلة بحرق وتدمير مدينة بابل -المقدسة لدى شعوب العالم القديم- إضافة إلى عمليات القتل والإبادة البشعة لنبلاء الناس وعامتهم، مع إبقاء الشعوب مستكينة تحت حد السيف وسطوة السلاح لضمان سيادة الإمبراطورية الآشورية وحدها، كل ذلك كان سببا في إتحاد أعداء أسيريا في النهاية ضمن تحالف مشترك جمع ملوك العراق الكلدانيين وشعب الميْدَس الإيراني، الذين قادوا قوة عارمة نحو مركز الدولة الآشورية، فإحتلوا

(13) See John Robertson. Iraq : A History. 2015. Oneworld Publications. pp 156-241

ودمروا عاصمتها آشور وقصرها الملكي، واضعين
حدا ونهاية للإمبراطورية الآشورية مرة وإلى الأبد.
اليوم ونحن نعيش وضعنا الحالي، حيث أتعبنا
إختلاف الرأي وأرهقنا غياب العزم والصدق،
تدعونا غرائزنا إلى إستعمال القوة لتحقيق الإستقرار
واللجوء إلى القسوة لقمع الاختلاف، لأننا سئمنا
طول المسير في درب التعايش والحرية، حيث نسعى
لبناء مجتمع يقوم على التبادل العادل للمصالح
المشتركة ويضمن كرامة كل الأفراد والمكونات، إلا
أن هذا طريق يجب سلوكه رغم ما فيه من العناء،
إذا أردنا يوماً أن نكون أفراداً قادرين على أن يشعروا
في أنفسهم قبل واقعهم، بأنهم حققوا العزة من
إنسانيتهم وأنصروا للنفيس من كرامتهم، بل هو
في الحقيقة الطريق الوحيد إلى ذلك، وما عداه أوهام
عاجلة تجلب في نهاية المطاف لعنة الحاضر وتؤدي في
آخر الأمر إلى مزبلة التاريخ.

إلتفاتة قبل الختام

ذكرنا في المقدمة أن هذا الكتاب لا يسعى لأن يكون مذكرة تاريخية نسهب فيها بالبحث عن مراحل التاريخ وأحداثه، بل هو مؤلف فكري يحاول أن يختار من مجريات الماضي صوراً واضحة يمكن الاعتبار منها ودراستها حتى نتمكن من فهم الحاضر بشكل أمثل والعمل للمستقبل بطريقة أفضل. إلا أن هذا المنهج والأسلوب لا يسمح بتوضيح جانب مهم من جوانب التاريخ وعبرة مهمة من عبر الماضي التي يتعذر إدراكها تماماً وفهمها كاملاً من غير دراسة مفصلة لحياة الشعوب وإستيعاب متأنى لتقلب الأزمان، لذلك سأضطر لذكر الفكرة أو العبرة بصورة مجردة بدون سداد حقها من الشواهد التاريخية، لعل ذلك ينبه القارئ ويشجعه على أن يواصل البحث فيها لاحقاً بنفسه، لينال بذلك بصيرة أكبر حول هذا الجانب المهم من جوانب الواقع والتاريخ.

هذه الفكرة هي أنه ليس في الحقيقة من وجود لمراحل ثابتة وحقب جامدة ينقسم إليه التاريخ أو تتوزع عليها العصور بالشكل الذي عهدناه من

دراستنا في المدارس والجامعات، فالتأريخ يشابه مجرى
النهر الذي يسيل باستمرار وإنسيابية وليس كالسلم
أو الدرج الذي يتم الانتقال فيه من مرحلة إلى أخرى.
فحضارات العراق من سومر وبابل و آشور، حكمتها
في الواقع 15 من السلالات الحاكمة على مر الزمن،
وتعاقب عليه مئات من الملوك⁽¹⁴⁾، الذين اختلفوا
عن بعضهم بالأصول الإجتماعية، التوجهات الثقافية
والأهداف السياسية، لكنهم إرتبطوا أيضا بصلات
القرباة وشاركوا إرثا حضاريا واحدا. فبابل ولدت
من رحم سومر، و آشور بناها ملوك لجش، وكل
العوائل رأت في أوروك منبعاً لوجودها وفي بابل مهذا
لعزتها، فالتأريخ والحياة هما كماء النهر الذي يحتفظ
فيه كل قطرة بخاصيته وجزئته لكن تجري في الوقت
ذاته بإنسجام مع باقي القطرات، فتنسب بذلك
حيثما توجه، وتأخذ شكل الوعاء الذي توضع فيه.
ومقصد هذا الكلام هو أن كل شي يتغير ويتبدل
بإستمرار، ما يعني أننا لسنا ملزمين بحياة معينة

(14) Department of Ancient Near Eastern Art. -List of Rulers of Mesopotamia.- In
Heilbrunn Timeline of Art History. New York: The Metropolitan Museum of Art,
2000-. http://www.metmuseum.org/toah/hd/meru/hd_meru.htm (October 2004)

ونظام معين إلا إذا شئنا ذلك، فكل شيء يمكن أن يصاغ من جديد ويتبدل، فالحياة بفضل دورة الموت والولادة لا تسمح ببقاء الأشياء على حالها، مهما كانت أو مهما طالت .

فالأمر كما وصفه ستيف جوبز :

من غير المستبعد أن يكون الموت هو إختراع الحياة الأفضل. إنه عامل تغيير الحياة. يزيل القديم ويفسح المجال للجديد. الآن الجديد هو أنت، ولكن في يوم ليس ببعيد من الآن، سيتحول الأمر تدريجيًا لتصبح أنت القديم.⁽¹⁵⁾

لذا لما لا نستغل هبة الحياة ونتحرر من خشية الماضي لنجعل من عصرنا الحاضر أفضل ما يمكن أن يكون عليه.

(15) Steve Jobs. (2005, June 14). -You've got to find what you love,- Jobs says. Stanford University.<https://news.stanford.edu/news/2005/june15/jobs-061505.html>

ما بعد الميلاد

9

ما قبل المعتاد

كيف ينتهي الطغاة، فقرة برعاية الأمويين

بعد أن أحكموا قبضتهم على السلطة بفضل قواتهم المتمركزة بشكل رئيسي في سوريا، أصبح هذا البلد بمثابة قلب الدولة الأموية، إلا أن هذا القلب كان يعتمد في دقاته على الموارد القادمة من العراق والتي كان الإتيان بها ليس سهلاً بالمرّة. فعندما مات يزيد سنة 683م، ثلاث سنوات بعد المذبحة التي إرتكبها في كربلاء، كان العراق غارقاً في موجة من الانتفاضات الساعية للإطاحة بالحكم الأموي، ولم يكن حتى عام 691م أن تمكنت قوات عبد الملك بن مروان من إحكام سيطرتها على العراق من جديد. كان عبد الملك مصمماً للغاية على إبقاء أرض العراق وشعبه تحت سيطرته ووسطوته، ويظهر ذلك جلياً من خلال الوالي الذي إختاره لإتمام هذه المهمة، إذ دخل هذا الوالي مسجد الكوفة يوماً على حين غفلة متنكراً بعباءة، ثم صعد إلى المنبر وخطب في الحاضرين قائلاً :

والله يا أهل العراق إني لأرى رؤوساً قد
أينعت وحن قطافها، وإني لصاحبها، والله

لكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى...
إنكم طالما أوضعتم في الفتنة، واضطجعتم
في مناخ الضلال وسنتم سنن الغي، وأيم
الله لأحونكم لحو العود، ولأقرعنكم
قرع المروة، ولأعصبنكم عصب السلمة
ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل، إني والله
لا أحلق إلا فريت، ولا أعد إلا وفيت.

هذا هو الحجاج بن يوسف الثقفي، الذي تمكن
على الرغم من قساوة أساليبه من إعادة تأسيس
السلطة الإدارية للأمويين في العراق من خلال
تطبيق وإستعمال أساليب الحكم المجربة والموثوقة
للساسانيين - الذين حكموا العراق قبل الأمويين -،
إلى الحد الذي صنف فيه العلماء المعاصرون الدولة
الأموية الشرقية على أنها إمتداد للدولة الساسانية،
فقد حذوا حذو الساسانيين في توحيد وسط وجنوب
العراق (الكوفة والبصرة آنذاك) ضمن مقاطعة
واحدة مطلقين عليها إسم -بلاد العراق- بعد أن
كان إسمها أسوريستان، مع الإبقاء على شمال العراق
كمقاطعة منفصلة ضمن ولاية الموصل، فعل ربما

كان نذير الشؤم لمشاعر الانقسام التي تستمر إلى يومنا هذا بين محافظات الشمال وباقي مناطق العراق.

عام 702م، أنشأ الحجاج عاصمته الجديدة في العراق - واسط - ضرباً للمصالح المترسخة في الكوفة والبصرة - . من عاصمته الجديدة، لم يكن الحجاج سيداً للعراق فحسب، بل كان سيداً للجزء الشرقي من الإمبراطورية الأموية، التي إمتدت الآن عبر إيران وآسيا الوسطى حتى حدود الصين.

بالنسبة للأمويين، كان إحكام القبضة على العراق أمراً حاسماً فيما يتعلق بقدرتهم على ضمان السلطة، فعائدات الثروة الزراعية لسواد العراق وسهلها الرسوبي كانت دائماً الحجر الأساس في الحفاظ على القوة والثروة اللازمة لبناء الإمبراطوريات في الشرق الأوسط. الشاهد على ذلك هو أنه بحلول القرن الثامن للميلاد، وبفضل مشاريع قنوات الري وإستصلاح الأراضي التي قام بها الحجاج، كانت عائدات العراق أربعة أضعاف تلك التي وفرتها مصر - مع كون النيل مأكنة الإقتصاد الأكبر في العصور القديمة - وتقريباً خمس أضعاف أو أكثر

من الحقول المركزية للدولة الأموية في سوريا وفلسطين⁽¹⁶⁾. إن ما زاد من ثروة العراق وأهميته هو إزدهار التجارة عبر المحيط الهندي والذي ربط موانئ البصرة بسواحل الصين والهند- الأمر الذي ترك بصمة خالدة في الادب العالمي، إذ وفرت الخلفية القصصية لعدة روايات منها -سندباد البحار- في قصص -ألف ليلة وليلة-.

بالنظر إلى هذا الرخاء، قد يفترض المرء أن عصر الأمويين كان جيدا لشعب العراق، لكنهم في الحقيقة غالبا ما تعذبوا بشدة تحت الحكم الأموي ، ولأسباب عديدة منها أن حكم الحجاج كان يتم تأمينه من خلال حاميات جنود مبعوثة من سوريا. أي أن العراق كان في الأساس واقع تحت الاحتلال، وكحال أي إحتلال مر على العراق، فقد قاومه شعبه ورفضه بشدة. إضافة إلى ذلك، مع أن الإيرادات الزراعية كانت بالفعل غزيرة، إلا أن الأمويين كانوا يحتكرون معظمها وبيعونها إلى دمشق. ما نتج عنه إزدياد المشاعر المناهضة للحكم الأموي خصوصا

(16) Hugh Kennedy. The Prophet and the Age of the Caliphates: The Islamic Near East from the 6th to the 11th Century. 2nd ed., Routledge, 2004. p.116

من خلال الإستياء الذي تولد بين أحفاد المهاجرين المسلمين - الذين حاربوا في معارك فتح العراق -، لأن السلطة الأموية حرمتهم من الثروة والمكانة الاجتماعية التي تمتعوا به سابقا. المزيد من الخلافات تولدت عندما أجبر الأمويون المسلمين الجدد من الأراميين والفرس على حمل صفة الموالي - أي التابعين للسلادة العرب -. الهدف من ذلك كان الحفاظ على هيمنة الطبقة الحاكمة وضمان القاعدة الضريبية للنخبة المسيطرة، لكن هذا النظام أثار إستياءً كبيراً بين هؤلاء الموصوفين بالموالي، فبالإضافة إلى مخالفته لتعاليم واضحة منصوبة عليها في القرآن، فإن هذه الشعوب المسلمة شعرت بالإهانة كونها وريثة لحضارة قديمة لا تقل عراقية عن تلك التي ورثها الفاتحون العرب. إعتقد الكثيرون من بين الفئات المذكورة أن المجتمع الإسلامي بحاجة إلى حاكم ذو مبادئ إنسانية رصينة وذو شخصية إسلامية راسخة، مفضلين بذلك أن يكون من آل بيت النبي.

بين عامي 747 و 750م، إنتسجت معاً خيوط الإستياء ضد الحكم الأموي وعزفت على أوتار

التفرقة والظلم لتخلق حركة مناهضة لتحدي الحكم الأموي. فبعد إضافة منطقة خراسان الواقعة في ما يُعرف الآن بشمال شرق إيران، إلى المقاطعات الواقعة تحت حكم الحجاج، الذي إتخذ من العراق مقراً له عام 698م، ونظراً لبطء وقلّة كفاءة تقنيات الإتصال في القرن الثامن ميلادية، فقد كانت خراسان ببساطة بعيدة جداً وليس بالإمكان إدارتها أو السيطرة عليها بإحكام من العراق، وعليه نشأ في خراسان خلال السنوات التي أعقبت الفتح الإسلامي، مجتمع مسلم يختلف اختلافاً كبيراً عن المجتمع العراقي. فعلى عكس العراق، حيث أسس العرب أول قدامهم إليها مواقع عسكرية خارج المدن لتفصلهم عن السكان المحليين، لم يتم إقامة أي حامية عسكرية في خراسان وبالتالي إندمج الوافدون العرب مع السكان المحليين بشكل اكبر. العديد منهم كانوا وقتها قد دخلوا الإسلام وأصبحوا من الموالي، ولكن نظراً لزيادة درجة الاندماج العربي-الإيراني، تميز المجتمع المسلم في خراسان بعلاقة أكثر تكافؤاً بين العرب والموالي. تناسب هذه المساواة بشكل

جيد مع مبادئ العدالة الاجتماعية لأولئك الذين
إعتقدوا أن فردًا من آل بيت النبي يجب أن يقود
الأمّة. لكن سواء كان الأمر كرها للتفرقة العرقية أو
تأييدا للحكم الهاشمي فإن كلا الاتجاهين تعارضت
مصالحها مع المصالح الأموية وكلا الفريقين وجدا في
خراسان أرضا خصبة لتحركهم.

في هذه الأثناء، وبحلول منتصف القرن الثامن
ميلادية، ظهرت حركة مغايرة تدعم سلالة هاشمية
أخرى تتمثل بأحفاد العباس عم النبي، سميت
بالفرقة -العباسية-، وعلى الرغم من أن العديد من
أولئك الذين أرادوا رؤية أحد أفراد آل بيت النبي
يتسلم القيادة، كانوا لا يزالون يفضلون نسل الإمام
علي، إلا أن كلا الطرفين إتفقا على ضم قواتهما مع
بعض والعمل ضمن الحركة المعادية للأمويين في
خراسان.

برزت من صفوف هذه الحركة لاحقا واحدة
من أكثر شخصيات هذه الحقبة غموضا وكاريزما،
صانع سرج من أصول مبهمّة وإسم غير معروف،
سمي في التاريخ بـ -أبي مسلم- الذي أصبح بمثابة

القائد الرسمي لما عرف فيما بعد بالثورة العباسية. بحلول عام 750م، قاد أبو مسلم القوات العباسية إلى سلسلة من الانتصارات ضد الأمويين، حيث إستولى على الكوفة عام 750م، ثم في نفس العام، ألحق بهم هزيمة نهائية وساحقة في معركة على نهر الزاب، أحد روافد نهر دجلة. التطهير الدموي الذي أعقب ذلك كاد يقضي على بني أمية ويزيحهم من الوجود، إلا أن سليل العائلة تمكن من الفرار وشق طريقه إلى إسبانيا مؤسساً مملكة مستقلة عاصمتها قرطبة، والتي سرعان ما أصبحت المدينة الإسلامية الرائدة في بلاد الأندلس، ممثلة في أوجها، أكبر مركز ثقافي وفني في أوروبا.

نستنتج من تجربة الأمويين أن المشكلة مع الطغيان هو أنه لا مكان معه للغفلة والسهو، فمع أن التسلط والجبروت يعمل بشكل رائع في القضاء على المعارضين والمخالفين لنظام الحكم ويمكن توظيفه بشكل إستثنائي لتجميع القوة بيد الحاكم وحده وتحقيق الهيمنة، إلا أنها تؤدي بطيعتها الظالمة والهوجاء إلى مشاعر حقد وغضب تستقر في عمق

الكيان الإنساني ولا تزول بسرعة مع الزمن. هذه المشاعر قد لا تكون ذات أهمية عندما يحرص الحاكم على إبقاء رعيته تحت سطوة السلاح وفي منزلة المستضعفين، لكن عندما يغفل عن فعل ذلك في مكان ما (كما حدث مع الأمويين في خراسان بعدها) فإن هؤلاء المضطهدين من الأعداء السياسيين أو المستضعفين على إختلاف توجهاتهم (هنا العباسيين والعلويين والموالي) الذين لم تحسب لهم السلطة الحاكمة حساب، سيتحدون بلمح البصر ويعملون بكل قوتهم وكيانهم ليضعوا حداً لذلك الوجود الذي أرهقهم على مر الزمن وأودع فيهم مشاعر الذل والهوان، وعندما يدرك الحاكم الظالم حجم الخطر الذي أحرق به يكون قد فات الأوان، فما كان يتراءى له كمجرد مجموعة من السحب الهينة التي تطفوا فوق كبرياءه وجبروته، إنها لت عليه لاحقاً كريح فيها عذاب أليم، تدمر كل شيء ولا تبقي منه حي.

لذا من أراد أن يكون طاغيا وأن يتسمر له الحال، فعليه أن يمارس طغيانه إلى حد الكمال، وأن لا يغفل

عن فعله لحظة زمان، لكن ذلك بطبيعة الحال من
المحال، فسبحان من لا يغفل عن فعله، وتعالى من
له الكمال كله.

ما حل بالمقاومة وبحلف المعارضين

حتى قبل النصر الذي حققه أبو مسلم عند نهر الزاب، كان العباسيون قد نقضوا عهدهم مع العلويين وإدعوا لأنفسهم منصب الخلافة، متخذين من رجل إسمه أبو العباس المعروف بالسفاح خليفة لهم في مدينة الكوفة. وبفعل ذلك فإنهم أثاروا غيض العلويين الذين شعروا بالخيانة، ولجأوا بدورهم في السنوات القادمة إلى الإنتفاض والعداء المسلح، الأمر الذي قابله السفاح ومن تبعه بالقمع والإضطهاد. لم يكن حكم السفاح طويلاً (خمس سنوات فقط) ولم يكن مميزاً بشكل خاص، لكن العصر الذي أنذر بدايته - أي الخلافة العباسية - كان من شأنه أن يرفع العراق إلى مقام ما كان يتمتع به في العصور القديمة من ثراء وأسبقية.

أصبح العراق خلال الـ 500 سنة من حكم الخلافة العباسية وبلا منازع، المركز السياسي الأعظم للدولة الإسلامية، كما إن عاصمتها الجديدة الواقعة على ضفاف نهر دجلة أصبحت بجدارة مركز الثقافة والتطور العلمي على وجه الأرض.

ظن العباسيون أن سبب فناء بني أمية كان يكمن في إنشغالهم بالملذات وإنزوائهم إلى عادات ملوك بيزنطا، فعجزوا بذلك عن تأسيس مبدأ فعال للثروة المشتركة وفشلوا في إحتواء الشعوب والمجتمعات الإسلامية الجديدة ضمن قالب تشريعي موحد. الأمر الذي دفع خلفاء بني العباس إلى الإهتمام بعلوم الشريعة وإغداق الأموال على العلماء والفقهاء حتى يجدوا أحكاماً فقهية تستطيع أن تستوعب المجتمعات الجديدة التي إمتلك حضارتها وأحكامها الخاصة قبل الإسلام، مع مراعاة مبادئ القرآن الكريم والأحاديث النبوية، ولذلك نجد إن جميع المذاهب الإسلامية نشأت وتطورت في العهد العباسي. هذا إلى جانب التطور الهائل في مجال العلم والأدب حيث أن أغلب العلماء والمفكرين الذين نفخر بهم على أنهم جزء من التراث الحضاري للإسلام قد عاشوا والعهد العباسي وعاشوا فيه.

على الرغم من كل هذا التقدم والرفاهية، لكن يبدو أن العباسيين لم يتعلموا كل شيء من علة زوال بني أمية، فهناك خطأ واحد قدر لهم أن يعيدوه

ويقعوا فيه أيضا، ما وضع بداية النهاية لحكمهم
ووجودهم. هذا الخطأ لم يرتكبه أحد خلفاء بني
العباس المتأخرين والهامشين، بل قام به الخليفة
الذي يحتفل به التأريخ على أنه الرجل الذي بلغ
العراق تحت حكمه أوج التطور والإزدهار.

العراق يفقد موقعه من مركز الصدارة

خلال القرن التاسع، بدأت سلطة العباسيين بالإنخفاض وبحلول منتصف القرن العاشر تحول الخلفاء إلى مجرد حكام صوريين، إذ تضاءلت قوتهم وسطوتهم ثم بدأت بالتلاشي، كما برز غزاة جدد إلى الساحة، وأصبحت بغداد مجرد ظل لمجدها الأسبق، كما فقد العراق دور البطولة ومركز الصدارة في العالم الإسلامي.

حتى بينما كان المترجمون غزيري الإنتاج، وعلماء القانون رفيعي المستوى، والصوفيون الأتقياء يضيئون عالم الثقافة والدين في بغداد، فقد كانت حظوظ العباسيين السياسية تبدأ بالزوال، لأسباب تضمنت توترات في قلب الديوان الملكي، إذ وجد هارون الرشيد عام 803 م أنه من الملائم القضاء على العائلة البرمكية⁽¹⁷⁾ - الذين يدين لهم العباسيون بالكثير من نجاحهم - من دون ذنب

(17) البرامكة، عائلة من الكهنة البوذيين، ينحدرون من أصل إيراني قادم من مدينة خراسان، برزوا في القرن الثامن ككتاب ووزراء للخلفاء العباسيين الأوائل. عُرف البرماكيون بالتفوق في الأدب والفلسفة والعلوم مع موقفهم المتسامح تجاه مختلف القضايا الدينية والفلسفية.

يذكر غير شعوره بالإستغناء عنهم وحسده إياهم على ما جمعوه مع الزمن من مال ومكانة - . وبعد موت هارون، تنافس إثنان من أبنائه للسيطرة على العرش العباسي وخلفت الحرب الأهلية الناتجة عن ذلك أضرارًا كثيرة على السهول الرسوبية وأنظمة الري، ولم تنته إلا بعد حصار طويل ومدمر على بغداد، شهدت فيها العاصمة حرب شوارع بين عصابات محلية وجنود مدربين في وسط أحيائها وأزقتها. إضافة إلى ذلك تعرضت الأراضي الزراعية في السهول (وعائداتها المهمة من المحاصيل) لكثير من الضرر عندما تمرد الآلاف من العبيد الأفارقة الذين تم إحضارهم إلى جنوب العراق من أجل العمل الزراعي ضد العباسيين في عام 869 م. وتنامى مثل المتمردين الكلدان الذين إتخذوا من الأهوار ملاذًا لهم أثناء ثورتهم ضد الآشوريين، فقد إستخدمها هؤلاء المتمردين، المعروفين بالزنوج، كقاعدة لشن حملات عسكرية ضد العباسيين. بحلول عام 883 م، كانت القوات العباسية قد سحقت التمرد، ولكن ليس قبل أن يتم تدمير البنية التحتية الزراعية في

الجنوب، وللتعويض عن ذلك، عمد العباسيون إلى الإفراط في زراعة الأرض - خطأ فادح تكرر على مدار تاريخ العراق، والتي أدت دائماً إلى تملح الأراضي الزراعية نتيجة ريها بشكل زائد - مما أدى إلى تقليل المحصول بدرجة أكبر وإلحاق خسائر فادحة بالنتائج الإقتصادية للدولة. الضعف الذي أعقب ذلك كلف الخلفاء العباسيين ثمناً باهظاً. فخلال أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر، سلم العباسيون السيطرة في مناطق كبيرة من الأراضي التابعة لهم إلى السلالات المحلية هناك، حُكمت تلك المناطق بشكل مستقل عن بغداد على الرغم من إعلانها الولاء للخلافة ظاهراً. إحدى هذه السلالات سيطرت على الموصل حوالي مطلع القرن العاشر، مما قلل من سيطرة العباسيين المباشرة على العراق وعزز روابط الموصل مع حلب وسوريا إلى الغرب - توجه كان ليبقى ويترك أثراً لواقع يخرج فيه الموصل من دائرة نفوذ بغداد -. في عام 969م، تمت الإطاحة بسلالة حاكمة محلية كانت قد سيطرت على مصر وإستبدلتها جماعة أخرى تعتنق

أيديولوجية شيعية جديدة. أطلقوا على أنفسهم إسم الفاطميين، ورفضوا بشكل قاطع هيمنة العباسيين، الذين إعتبروهم بمثابة الكفار المستحقين للتشريد والقتل. أسس الفاطميون عاصمة جديدة سرعان ما برزت لتضاهي بغداد كمركز للقوة السياسية والثقافية : القاهرة.

بحلول ذلك الوقت، كان خلفاء بغداد يفقدون سيطرتهم على مناطق أقرب إلى الديار وذلك لقوات جديدة كان العباسيون أنفسهم سببا في تواجدها هناك. فخلال الحرب الأهلية التي أعقبت موت هارون، سعى أبناؤه إلى تقوية سلطتهم بقوات عسكرية جديدة يكون ولاؤها أكثر ضمانا من ولاء رجال القبائل العربية الذين إعتد عليهم الحكم العباسي بشكل تقليدي. لذا لجأوا إلى وسيلة كان ليحذو حذوها حكام الشرق الأوسط لقرون عديدة قادمة : وهو تجنيد المرتزقة والجنود العبيد -الذين يشار إليهم بالمماليك (مملوك) أو الغلمان (شاب)- والذين تشكلت منهم طبقة عسكرية محترفة لم يتأثر ولاؤها للخليفة بأي ولاءات منافسة كالقراية القبلية.

ملأ العباسيون صفوف عساكرهم بشعب إلتقوا بهم لأول مرة في أقصى الشرق من إمبراطوريتهم، ولكنهم حلوا بالتدريج محل العرب وأصبحوا بمرور الوقت العرق المهيمن سياسياً وعسكرياً على الشرق الأوسط، هؤلاء هم الأتراك.

كان الأتراك في البداية مجموعة من البدو الرحل الذين امتطوا الخيول و امتلكوا تقاليد وعادات المحاربين، إذ جعلهم إتقانهم لإستخدام القوس المركب قوة عسكرية هائلة. علق أحد المؤرخين العرب في القرن التاسع على عاداتهم في الركوب والقتال قائلاً : -هي متعتهم الوحيدة، ومجدهم، وموضوع كل حديثهم. وهكذا أصبحوا في القتال ما كان عليه الإغريق في الفلسفة-. إن إسناد الممالك لحكم الخليفة وحمايتهم للعاصمة كان له ثمنه، إذ سرعان ما إستاء السكان المحليون من وجود المحاربين الأجانب ومن طباعهم الخشنة، فإلى جانب سوء جوارهم، شعر السكان معهم بالخطر على مكانتهم الإجتماعية. لهذه الأسباب وغيرها نقل الخليفة معسكر الممالك عام 836 م من العاصمة

بغداد إلى مدينة سامراء التي شيدها حديثاً على بعد 130 كيلومتر من نهر دجلة. بحلول عام 892 م، وبعدما غادر الخلفاء سامراء للعودة إلى بغداد، كانت سامراء مدينة عامرة بقصورها ومساجدها الرائعة - حيث أصبحت أطلالها اليوم من مواقع التراث العالمي - لكنها شهدت أيضاً اضطرابات كبيرة حيث بدأ القادة الأتراك فيها بفرض إرادتهم على الخلفاء، حتى إن أحد الخلفاء لقب واحداً من القادة الأتراك هناك بـالسلطان-، لقب قدر له في القرون القادمة أن يضاهي منصب الخليفة قوة وأهمية. مع هذا التدخل المتزايد كان الرجوع إلى بغداد ذو تأثير ضئيل على التقليل من وطأة التآمر العسكري التركي، فالخلفاء أصبحوا كالدُمى في أيدي القادة العسكريين والوزراء، إذ كانوا يستبدلونهم متى ما شاءوا، وبعدها حتى إن لم يقوموا بقتلهم فإنهم كانوا يقلعون أعينهم بوحشية أو يرمون بهم في الشوارع ليعيشوا فيها متسولين.

في منتصف القرن العاشر، تراجعت سلطة العباسيين إلى أدنى مستوياتها. ففي عام 945 م، أُجبر

الخليفة على التنازل من القيادة ومنح لقب القائد العام للقوات المسلحة إلى قائد عسكري من العائلة البويهية بأذربيجان، الذي أعلن الولاء للخليفة بصورة شكلية فقط. في العام التالي تعرضت القاعدة الزراعية العباسية في أرض السواد لحادث مدمر. إذ أدى قطع قناة النهر وان الذي زود الأراضي الزراعية الملكية بمياه السقي منذ عصر الساسانيين إلى تعطيل مزارع السواد بالشكل الذي لم تتعاف منه أبدا.

لا يمثل زوال الحكم العباسي في بغداد مجرد نهاية دولة حاكمة فقط وإنما يجسد نهاية حقبة كاملة من تاريخ البشرية. لأن العباسيين كانوا آخر قوة سياسية كبرى في سلسلة طويلة ومتواصلة من القوى العظمى، بل وحتى العالمية التي أنتجت دولاً وحضارات عظيمة وحكمت إمبراطوريات شاسعة، كل ذلك بالاعتماد على الهبة الزراعية المتواجدة في السهول الرسوبية لبلاد ما بين النهرين. فمن السومريين والآشوريين والبابليين، إلى الفارسيين من سیريس وداريوس، إلى الإسكندر المقدوني وخلفائه السلوقيين، إلى البارثيين والساسانيين الفرس، وأخيراً

إلى العباسيين العرب المسلمين في بغداد، هؤلاء جميعا بنوا قوتهم وساهموا في جعل عالمنا على ما هو عليه اليوم، كله عن طريق الخيرات التي قدمها أرض السواد ومياه نهري دجلة والفرات.

من الجدير بالملاحظة أن جميع ما ذكرنا من البلايا التي نزلت بالعباسيين بدأت بشكل كبير بعد قتل هارون للبرامكة الذين كانوا وزراء الدولة وخبراء الإدارة منذ قيام الدولة العباسية، فعندما أزال هارون ذلك العضو المهم من كيان الدولة، حل محله كيان أجنبي إنتشر في ربوع الدولة كالسرطان حتى إستنزفها أخيرا ولم يبق منها شيء، إذ أدى غيابهم إلى إعتياد أحفاد هارون على قوى خارجية لضمان سلطتهم وتصفية الحسابات فيما بينهم، غير ملتفتين إلى حقيقة أن الذين يحمونهم الآن ويحيطون بهم ليسوا جزءا أصيلا من الدولة ولا يهتمون لبقائها كما فعل البرمكيون، وأنهم سينقلبون عليهم ويطيحون بهم متى ما وجدوا القوة اللازمة لذلك. إضافة لذلك أدى غياب البرامكة إلى أن تتراكم الأخطاء التي إرتكبها الخلفاء على مر الزمن، من غير وجود جهة

لها رؤية واضحة عن ما يجب أن تكون عليه الدولة وكيف يجب عليها أن تتكيف مع تحديات العصر ومرور الزمن، فهارون عندما قرر قتلهم لم يكن يفكر بالمستقبل وما يحمله من مشاكل، بل كان ينظر إلى عصره فقط فيرى أن كل شيء فيه يمضي على قدم وساق ولا حاجة له بأي أحد لإبقاء الوضع على ما هو عليه، فكان لهذا الطغيان وقصر النظر أن يكلف الحكم العباسي في النهاية وجوده وماهيته.

من الجدير بالذكر أن الإنسان يتعجب عندما يجد بعد الإمعان في دراسة التاريخ بأن هارون الرشيد لم يكن في الحقيقة حاكماً مميزاً بأي شكل من الأشكال ولم يمتلك أي سمات شخصية مبهرة أو قدرات إدارية لافتة⁽¹⁸⁾. كل ما في الأمر أن الدولة العباسية بلغت في وقته أوج نضجها وإستقرارها، فقطف هارون ثمار الإنجازات التي حققها كل من قبله وإستلم هو نتاج أتعابهم على طبق من ذهب، كما أغدق أموالاً طائلة على الشعراء والفنانين الذين وصفوه بالجليل

(18) William Montgomery Watt . -Hārūn al-Rashīd-. Encyclopedia Britannica, 20 Mar. 2022, <https://www.britannica.com/biography/Harun-al-Rashid> . Accessed 27 April 2022.

وصوروه بالرشيد، ومنهم تولدت هذه الفكرة
الخاطئة عن ما نظنه اليوم من أمر هارون، وما أمر
هارون حقاً برشيد.

حرب طائفية و قتل على الهوية، في عام 971 ميلادية!

ظهر البويهيون عام 934م كقوة شيعية متمركزة في إيران و وزّعوا حكمهم بشكل لامركزي عبر معظم أراضي العراق وإيران، حيث كان أفراد مختلفون من العائلة يتولون السلطة في مدن مختلفة. على الرغم من استمرار البويهيين في تأكيد ولائهم للخليفة في بغداد، الذي ارتضوا إعتباره المرجع الأعلى للسنة كونهم يشكلون الأغلبية السكانية، إلا أنهم شجعوا إقامة المراسيم الشيعية ودعموا بناء الأضرحة والمساجد التابعة للشيعية. لكن سرعان ما بدأت قبضتهم على العراق بالتلاشي عندما سيطرت السلالات العربية المحلية على الموصل شمالا وفي الجنوب على الحلة، بينما بدأت القبائل الكردية في شمال شرق البلاد بفرض سيطرتها داخل معاقلها الجبلية. كما تدهورت العلاقات بين السنة والشيعية في العراق. إذ أثارت التقاليد الشيعية كزيارة مزارات الأئمة حفيظة المدرسة الحنبلية وغضبها. الأمر الذي أدى في النهاية إلى مهاجمة بعض المتشددین لمرقد الإمام الحسين في

كربلاء وإحراقه عام 971م، إهتزت بغداد جراء هذا الفعل تحت وطأة أعمال الشغب والإشتباكات الدموية التي إشتملت على عصابات تدافع كل منها عن أحيائها وشوارعها التي أصبحت محددة بالإنتماء الطائفي والهوية المذهبية⁽¹⁹⁾. سابقة مرعبة للإشتباكات التي حدثت بعدها بألف سنة تحت ظروف مماثلة عندما تم تفجير ضريح العسكريين عام 2003م.

نحن اليوم غالبا ما نميل إلى لوم القوى الأجنبية المحتلة على التصعيدات الشعبية والمشاكل الطائفية التي تحدث في العراق - ومع إن هذه الفكرة فيها من الصحة ما فيها - إلا أنه يجب علينا أن نقر في الوقت نفسه بأن الحرب الطائفية عام 971م حدثت ثمانئة سنة قبل أن تكون لبريطانيا العظمى أو الولايات المتحدة إسم على الخارطة أو وجود في التاريخ.

ومع أنه قد يصح بأن الحادثة الأولى كانت مصممة لخلق جو سياسي معين وإيجاد ظروف إجتماعية محددة، وأن المحتل إستفاد فقط من مثال تاريخي

(19) See Thabit A. J Abdullah. A Short History of Iraq. Routledge, 2010.pp.20-23

ناجح لخلق سيناريو مماثل ومطلوب، إلا أننا لسنا بصدد الولوج في تحليلات سياسية أو إستنتاجات منطقية لا نملك عليها الدليل ولا نفقه منها الكثير. كل ما نود قوله هو كم كان الوضع ليختلف الآن، وكم من الأرواح كانت لتحيا اليوم وتصلان، لو أدرك الذين إندفعوا جهلا إلى القتال في شوارع بغداد عام 2003م بأن هذا مجرد تكرار لفعل سابق لا يراد منه تفجير قباب أو أضحية وإنما الهدف منه إزهاق أرواح وأفئدة. بل كيف كان فعل الشاب في بغداد وباقي البلد ليتغير، لو أدرك أن هناك زمرة متطرفة تسعى لقتل تعايش يمتد لأكثر من ألف سنة من خلال إعادة إحياء جو سياسي مختص بنمط معين من الحكومات، ولأهداف سياسية ليس لها بالدين أو الحق صلة، هل كان سيسعى إلى تركهم في الساحة وحيدين مفضوحين، أم كان سيعمل على تغطية أفعالهم بدماء جيرانه المقتولين.

هنا يكمن أهمية التطلع في التأريخ والإعتبار من الماضي، إذ يمكننا من معالجة الواقع بصورة أفضل وبالتالي رؤية المستقبل والعمل له بشكل

أمثل، فبدل أن يزداد المرء حكمة، فقط من خلال التجارب الشخصية عبر العشرين أو الخمسين سنة من حياته، فإنه يتعلم من أخطاءه وتجارب شعوب كاملة وعصور متطاولة، وبذلك يزداد حكمة في التدبير ونباهة في التقدير، من غير الحاجة إلى أن يخطئ في الأمر أو يصيب، ويعيش الدرس بنفسه فيشيب.

قد يتبادر للقارئ بأن ما ذكرناه مجرد إستطراد وكلام، وأن تغير الحال بمقال من المحال، بل أحلام، لذا أود أن أسرد شيئاً من حديث الفيلسوف الأخلاقي جون فلين عندما تحدث عن حجم تطور مستويات الذكاء للناشئة الأمريكان منذ مطلع القرن الحادي والعشرين، حيث قال قرب الختام : -الآن، يجب أن أقول شيئاً محبطاً للغاية. وهو أننا لم نحرز تقدماً في كل النواحي. فأحدى الطرق التي نتعامل بها اليوم مع تطور العالم الحديث هي من خلال السياسة، وللأسف حتى وإن كان للمرء مبادئ أخلاقية إنسانية ويمكنه تصنيف الواقع أو إستخدام المنطق في فهم المواضيع المجردة. فلا يمكن له ممارسة السياسة إن كان جاهلاً بالتاريخ وبأخبار البلدان الأخرى. لقد

لاحظنا أن هنالك نزعة بين الشباب الأمريكي، وهي أنهم يدرسون التاريخ والأدب بشكل أقل ولا يقرؤون الكثير عن الأراضي الأجنبية، فهم بشكل عام أميون في التاريخ. إنهم يعيشون في فقاعة الحاضر. إنهم لا يفرقون بين الحرب الكورية و حرب فيتنام. إنهم لا يعرفون من كان حليفاً لأمريكا في الحرب العالمية الثانية. تأمل كيف كانت أمريكا لتختلف لو علم كل أمريكي أن هذه هي المرة الخامسة التي تذهب فيها الجيوش الغربية إلى أفغانستان لتنظيم شأنها، أو على الأقل علم بما حدث في المرات الأربع الأولى من فشل وإخفاق، حيث تم مغادرتها في النهاية من غير أثر يذكر. أو تخيل كم كانت الأمور لتختلف الآن لو أدرك معظم الأمريكيين بأنه قد كُذِب علينا في أربعة حروب من حروبنا الست الأخيرة. فكما تعلمون، لم يُغرق الإسبان البارجة ماين، ولم تكن لوسيتانيا سفينة بريئة بل كانت محملة بالذخائر، ولم يهاجم الفيتناميون الشماليون أسطولنا السابع، وبالطبع، كره صدام حسين القاعدة ولم يكن له أي شأن بهم، ومع ذلك تمكنت الإدارة الامريكية من

إقناع 45% من الشعب بأنهم إخوة في السلاح وشركاء
في الحرب، بينما كان أحدهم في الحقيقة يود شنق
الآخر من أقرب عمود إنارة⁽²⁰⁾ -.

(20) James Flynn - why our IQ Levels are higher than our grandparents- TED, March 2013

في السياسة : ما يأتي من الغير ليس بخير، مهما بدا عديم الضر

بحلول عام 1055 م، كان السلاجقة الأتراك قد وضعوا العراق تحت سيطرتهم. معيدين في بادئ الأمر جزءاً من هبة بغداد والخلفاء العباسيين. إذ دخل السلاجقة بقيادة الخان طوغرول بغداد، ووضعوا حداً للحكم البويهى وما وصفوه برجس الهيمنة السياسية الشيعية، معلنين أسبقية الإسلام السني وولائهم للخليفة - الذي لم يكلف طغرول نفسه حتى عناء مقابله - . منح الخليفة الممتن والمجبور طوغرول لقب -السلطان- - الذي حمله طغرول وأحفاده بفخر عبر السنين - . كما هو الحال مع البويهيين، كان السلاطين السلاجقة هم الذين مارسوا النفوذ السياسي الحقيقي، في حين إقتصرت سلطة الخلفاء على الشؤون الدينية. هيمنت السلطة السنية خلال هذه الحقبة بشكل عام ثم أعقبها فترة قصيرة إنتعشت فيها القوى الشيعية بين عامي 1058 م و 1059 م، الأمر الذي شنت ضدها القوى السلجوقية عمليات رد عنيفة. في العقود التي تلت

تعرض المسيحيون واليهود إثر هذا الصراع أيضًا للإضطهاد.

أظهر السلاطين دعمهم للإسلام السني من خلال إنشاء العديد من مؤسسات التعليم الدينية والتي سميت بـ- المدارس - وأشهرها بـ- النظاميات - تيمنا بإسم مؤسسها، نظام الملك، الوزير الفارسي اللامع الذي خدم السلطان ملكشاه. أكثر هذه النظاميات شهرة كانت نظامية بغداد، التي أدى تعيين العالم ذائع الصيت والمعروف بالغزالي فيها إلى أن تكون مغناطيسا لزبدة العقول والكفاءات من كل الأرجاء، وظلت بغداد تستقطب صفوة علماء الدين والطلاب وكذلك الشعراء. ومع ذلك لم يتخذ أيًا من الملوك السلاجقة بغداد عاصمة له، إذ فضلوا المدن الإيرانية مثل أصفهان، وبعد ذلك همدان. فثقافيا كانت بغداد مركزا رئيسيا، أما سياسيا، فمجرد فناء خلفي للدولة السلجوقية.

أغتيل نظام الملك عام 1092 م وتوفي السلطان ملكشاه بعده بفترة وجيزة. جاء مقتل نظام الملك على أيدي أعضاء مجموعة متطرفة من الطائفة

الإسماعيلية. إشتهرت المجموعة التي قتله بدس الحشيش لأتباعها وعملائها المحتملين حتى تتولد لديهم هلوسات مصحوبة بالنشوة، الأمر الذي كانوا يقنعون أتباعهم بأنه مشابه لشعور الموت والشهادة، ليسهل بذلك تشجيعهم على القيام بعمليات الانتحار والإغتيال. وهكذا أصبحوا يعرفون بإسم -الحشاشين-. ومن هذا المعنى يأتي أصل اللفظة الإنكليزية لكلمة القاتل (أساسين : **Assassian**).

بعد وفاة السلطان ملكشاه في العراق، تنافس الحكام المحليون العرب والأتراك والأكراد على السلطة خلال القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر. أعلنت سلالة عربية بدوية لفترة وجيزة إستقلالها في الجنوب، وحكمت سلالة تركية معروفة بإسم الزنكيين مدينة الموصل في الشمال، كما وإستغل الخلفاء العباسيون في بغداد ضعف السلاجقة لفترة وجيزة ليعيدوا فرض أنفسهم كحكام على وسط وجنوب العراق، حتى أنهم صدوا حصارا فرضه أحد السلاطين السلجوقيين على بغداد عام 1157 م -أي أنهم حاصروا الخليفة الذي أعلنوا له

الولاء عندما أعلن الأخير عن إستقلاله وحريته-،
عموما فقد تسببت الخلافات الداخلية لاحقا بتفتت
الدولة السلجوقية ومن ثم زوالها.

هنا تجدر الإشارة مجددا الى أن المقصود من ذكر
بعض هذه الحوادث المؤسفة، ليس إطلاقا التعرض
لأي عرق أو قومية، كما لا يراد بها أبدا الإساءة لأي
دين أو مذهب، بل المقصود منه هو توضيح كيف
يمكن للقوميات والأديان أيّا كانت أن تتحول إلى
مسميات وأدوات سياسية تحاول من خلالها زمرة
جشعة أن تحقق مصالحها السياسية وأهدافها الدنيوية،
فالقومية نشأت لتمييز الناس فيما بينهم، والأديان
جاءت ليعيش الناس مسالمين بما عندهم، لذا عندما
يزاح الانسان ومصلحته من جوهر هذه المفاهيم،
فإنها تتحول إلى تعابير خالية تستعمل لإصطياد العقول
الضعيفة والنوايا الأليفة، وهذا ما أُريدَ بيانه باختصار
من خلال هذه الشواهد والأدلة.

العراق في عصر -إمبراطوريات البارود-

في تأريخ العالم، غالبًا ما يتم وصف القرنين السادس عشر والسابع عشر على أنهما عصر -إمبراطوريات البارود-، وذلك لأن معاصريها هم أول من تعرفوا على هذه المادة ثم شهدوا تزايد استخدام وتطور التكنولوجيا العسكرية الجديدة القائمة على البارود، والتي تعلموا عنها من الصين. بحلول القرن الخامس عشر، بدأت السلالات الجديدة بتجهيز جيوشها بالمدافع والأسلحة النارية وتقنيات التعدين لفرض سيطرتها على مناطق واسعة.

بعد عام 1500م بقليل، ظهر في الشرق الأوسط إثنان من السلالات الحاكمة، كلاهما من أصل تركي: العثمانيون، وعاصمتهم القسطنطينية، والصفويون، الذين إتخذوا في أوج قوتهم من أصفهان عاصمة لهم. وإذا وسعنا نطاق البحث، فقد نضمّن أيضًا سلالة ثالثة: المغول في الهند، وهي سلالة منحدره من تيمور. بحلول نهاية القرن السادس عشر، كانت المنطقة الحدودية بين الإمبراطوريتين العثمانية والصفوية هي العراق. وقد تحملت المنطقة

وسكانها تكلفة ذلك الموقع من الدمار وسفك
الدماء.

بدأ العثمانيون صعودهم إلى السلطة في أواخر القرن
الثالث عشر، بعدما تم زعزعة إستقرار جزء كبير
من الشرق الأوسط بسبب الهجوم المغولي. تركز
زعيم قبلي تركي يدعى عثمان وأتباعه من القبائل
البدويين (العثمانيون) في الزاوية الشمالية الغربية لما
يعرف الآن بتركيا، حيث إختاروا لأنفسهم صفة ال-
غازي- (محارب الحدود) ضد المسيحيين البيزنطيين،
الذين كانوا لا يزالون متمسكين بعاصمتهم القديمة
-القسطنطينية-. خلال الأعوام المائة التالية، وسع
العثمانيون مملكتهم إلى أقصى الشرق عبر الأناضول
وغرباً إلى جنوب شرق أوروبا. تعثر الصعود العثماني
لفترة وجيزة في عام 1401م، عندما حطم المغول
بقيادة تيمور جيوش السلطان العثماني بايزيد في أنقرة
وجره إلى الأسر المهين. فبحسب بعض الروايات،
إحتجزه تيمور في قفص وأجبره على المشاهدة بينما
كانت زوجته بايزيد المفضلة، مجردة من ملابسها،
تخدم تيمور. ولكن بحلول الوقت الذي حاز فيه

محمد الثاني على السلطة عام 1451 م، كان العثمانيون على وشك إعادة تأكيد هيمنتهم.

وقد أدى محمد ذلك بشكل مذهل، ففي عام 1453 م، قام بإنجاز لم يقدر عليه أي من الخلفاء العرب ولا السلاطين السلاجقة قبله وهو: غزو القسطنطينية، التي أصبحت بعدها عاصمة الإمبراطورية العثمانية حتى نهايتها بعد الحرب العالمية الأولى. أنذر محمد بغزوه للقسطنطينية بداية عصر -إمبراطوريات البارود-، حيث إستخدمت جيوشه مدافع ضخمة لتفجير تحصينات المدينة وكذلك لإغراق السفن التي حاولت قلب الحصار. تبنى العثمانيون - حتى قبل عهد محمد - ممارسة كان لها في ذلك الوقت تأريخ طويل ومميز في الشرق الأوسط وهو: تجنيد الجنود العبيد لإنشاء قوة قتالية من النخبة لها ولاء غير مشكوك فيه للحاكم.

حصل العثمانيون على الموارد البشرية اللازمة لبناء هكذا قوة من خلال إعتقال الصبية بشكل دوري من القرى المسيحية الواقعة تحت سيطرتهم في جنوب شرق أوروبا - بعملية تسمى دوشيرمه

Devshirme - ونقلهم إلى العاصمة. هناك، يتم تحويلهم إلى مسلمين وتعليمهم في المدارس ليخدموا إما كمسؤولين إداريين في البيروقراطية الإمبراطورية المزدهرة أو كجنود يحملون الأسلحة النارية في فيلق المشاة المنضبط والذي خافه الأوروبيون وعرفوه بإسم -الإنكشارية-.

بين عامي 1512 - 1520 م وفي عهد السلطان سليم الأول، أصبحت الدولة العثمانية حقًا إمبراطورية شرق أوسطية بالإضافة إلى إمبراطورية أوروبية. بحلول الوقت الذي مات فيه سليم، كان سليم قد غزا سوريا وفلسطين ووصل إلى ذروة إنجاز غير عادي مع غزو مصر عام 1517 م، وإنهاء سلطنة المماليك في القاهرة.

ومع ذلك، كان لا يزال على سليم أن يهتم بتهديد جديد وكبير على الحدود الشرقية لمملكته. فقد ظهرت في إيران سلالة حاكمة نافست العثمانيين على السلطة والمكانة في العراق وشرق الأناضول. وارتبط صعودها بسيرة رجل يُدعى إسماعيل، الذي استطاع، منذ صغره، أن يبني على مكانته الموروثة كزعيم كبير

لنظام صوفي متشدد من أجل تحقيق صعود سريع إلى السلطة إلى أن منح نفسه عام 1501 م لقب الشاه. بصفته شاه إسماعيل، كان أول حاكم لسلالة أخذت إسم الطريقة الصوفية: الصفوية، أو الصفويين. من بين أعضاء هذه الاتجاه كان رجال القبائل من الشيعة التركمان في إيران وشرق الأناضول، والمسمون قيزيلباش (على إسم القبعات الحمراء التي كانوا يرتدونها)، الذين توافدوا للعمل تحت راية إسماعيل وخدموا قضيته بإخلاص.

شن إسماعيل بدعم من قوات القيزيلباش سلسلة من الحروب التي وصلت إلى العراق، حيث إستولى عام 1508 م على بغداد والموصل، وشرقاً عبر إيران إلى أفغانستان. دافع إسماعيل بقوة عن المذهب الشيعي (وإن كان بطريقة غير تقليدية إلى حد ما، إذ إدعى لنفسه مكانة مقدسة بسبب نسبه المزعوم من سلالة الإمام علي). كما أجبر هو وخلفاؤه السكان السنة في إيران على التحول عن مذهبهم وإلا مواجهة الإضطهاد⁽²¹⁾.

(21) see Andrew Newman. Safavid Iran: Rebirth of a Persian Empire (London: I.B. Tauris 2009).

من خلال إعلان الشاه إسماعيل بأن توجه نظام الحكم هو شيعي بحت، فإنه أوجد بعداً إضافياً للتنافس والعداء بين الصفويين والعثمانيين. فمع أن نشأة العثمانيين في الأناضول إرتبطت بدورهم كمحاربين عن الإسلام - ضد الصليبيين - ، لكن يبدو أن إعلان الصفويين عن تحيزهم الشيعي قد شحذ شعور العثمانيين بأنهم الأبطال المخلصون للعقيدة السنية، والتي يجب عليهم الآن أن يدافعوا عنها ضد البدعة الشيعية. وهكذا، أصبح التنافس بين العثمانيين والصفويين يتعلق بأكثر من مجرد السيطرة على الأراضي والطرق التجارية⁽²²⁾. بل إتخذت طابع الحرب الدينية.

أول مواجهة عسكرية كبيرة بين الإمبراطوريتين جاءت عام 1514 م ، في كلديران شرق الأناضول، بالقرب من جنوب غرب تبريز عاصمة الشاه إسماعيل. سحقت القوات العثمانية المتفوقة بالعدد، والمجهزة بالمدفعية، فرسان إسماعيل من القيزلباش، مما أجبره على التخلي عن تبريز للعثمانيين. على

(22) See Hala Fattah, and Frank Caso. A Brief History of Iraq. Illustrated. Checkmark Books. 2009. p.99

الرغم من أن العثمانيين لم يبقوا طويلاً في تبريز، إلا أنهم سرعان ما فرضوا سيطرتهم على الموصل وكذلك المنطقة الجبلية في شمال وشمال شرق العراق، والتي حاولوا فيما بعد حكمها تحت مسمى مقاطعة شهرزور. كانت السلطة العثمانية في تلك المقاطعة، مثل سلطة الحكومة المركزية في العراق اليوم بعد أكثر من أربعمئة عام، في تنافس و نزاع مستمر تقريباً، لأن شهرزور كانت موطناً للقبائل الكردية ذات العقلية المستقلة.

بقيت بغداد ووسط العراق في أيدي الصفويين حتى بعد عشر سنوات من وفاة إسماعيل عام 1524 م، إلى أن إستهدفها أكثر السلاطين العثمانيين شهرةً -سليمان الأول-. يعتبر المؤرخون عهده (1520-1566 م) ذروة القوة العسكرية والمكانة الدبلوماسية للدولة العثمانية. ففي عهد سليمان، إمتدت الإمبراطورية العثمانية من العراق إلى مشارف فيينا والساحل الجزائري. أطلق سليمان ثلاث حملات ضد الصفويين في العراق محتلاً بغداد عام 1534 م، وفي عام 1546 م سيطرت البحرية العثمانية

على البصرة. ولكن حتى في قبضة سليمان، كان يمكن للسيطرة العثمانية على العراق أن تكون ضعيفة، وذلك بسبب أطماع الصفويون المترسخة في المنطقة، ولا سيما في مدن المزارات الشيعية المقدسة في النجف و كربلاء، وأيضاً بسبب تمرد الحكام المحليون أحياناً على الحكم العثماني.

أكثر شاه صفوي شهير هو عباس الكبير (حكم من 1629-1587 م)، معروف ليس فقط بغزواته العسكرية وبراعته الدبلوماسية - كتواصله مع الحكام الأوروبيين مثل إليزابيث الأولى ملكة إنجلترا - ولكن أيضاً لنقله عاصمة الدولة إلى أصفهان التي أعاد إنشائها كواحدة من أجمل مدن الشرق الأوسط. كما أكد عباس بقوة على المخططات الصفوية بشأن السيطرة على بلاد الرافدين، مما جعل العراق مرة أخرى ساحة معركة مع العثمانيين. بعد أن غلبت جيوش عباس قوات العثمانيين واستولت على بغداد عام 1623 م، نفذوا إنتقاماً رهيباً، حيث قتلوا العديد من السنة في جنوب العراق ودمروا أيضاً إثنين من المساجد السنية العظيمة في بغداد.

عندما إستعاد العثمانيون بغداد بعد خمسة عشر عاماً، إنتقموا بدورهم ايضاً، وقتلوا الآلاف من الشيعة. لكن في عام 1639 م، إتفق الجانبان على معاهدة أقرت ما هي إلى حد كبير حتى اليوم الحدود بين إيران والعراق. بحلول منتصف القرن الثامن عشر، إنطفأ نجم الدولة الصفوية، كما خفّت السيطرة العثمانية على العراق، وانتقلت إلى الحكام المحليين في بغداد والموصل والبصرة الذين كان ولاؤهم للسلطان ضعيفاً في أغلب الأحيان. كما إن قدرة هؤلاء الحكام في السيطرة على الأرياف المحيطة بأرضهم كانت هي الأخرى ضعيفة. مما أدى إلى تفاقم الفقر المدقع والمرض بسبب غارات القبائل العربية في الجنوب والقبائل الكردية في الشمال. بحلول أواخر القرن الثامن عشر، كانت النظرة المستقبلية للعراق غير مؤكدة ومحفوفة بالمخاطر. فمثلما دمرت الحروب الرومانية البيزنطية/ ضد البارثيين والساسانيين أكثر مناطق بلاد الرافدين قبل ما يزيد عن الألف عام، كذلك تركت الحروب العثمانية/ الصفوية المنطقة في ظروف قاتمة، إذ سادت مدنها وبلداتها حالة من

الإضمحلال، وريفها تهدد بالوباء والتسليب⁽²³⁾.

(23) See John Robertson. Iraq : A History. 2015. Oneworld Publications. pp.386-415

التشكل الديموغرافي المعاصر لمحافظة الجنوب

خلال القرن التاسع عشر، وبعد سنوات عديدة من تردي السلطة الإمبريالية العثمانية وظهور قوى محلية في معظم أنحاء الإمبراطورية، بالإضافة إلى غزوات المنافسين الأوروبيين، أطلق العثمانيون برنامج إصلاح مستدام أسموه بالتنظيمات، والذي كان يهدف إلى إنعاش وإعادة تأكيد السلطة العثمانية في العراق. هذه التنظيمات تزامنت مع تغير ديموغرافي مهم أثرت على العراق وأدت إلى إغناء - وكذلك تعقيد - طبيعة التنوع المذهبي فيه. الأمر الذي أنتج تغييرا اجتماعيا ضخما لا يزال العراق يحاول التكيف معه إلى يومنا هذا.

بدأت هذه التغيرات في أواخر القرن الثامن عشر، عندما هاجر الآلاف من رجال القبائل العربية ذات الأغلبية السنية إلى العراق من شبه الجزيرة العربية. إستقر معظم الوافدين الجدد في جنوب ووسط العراق، بما في ذلك الريف المحيط ببغداد وكذلك

مدينتي النجف وكربلاء. كان العثمانيون يأملون في أن يستقر رجال القبائل الرحل كمزارعين ومربي أغنام، لذلك قاموا برعاية بناء قناة - الهندية - الجديد لري الأراضي الزراعية. بدأ رجال القبائل السنية فعلاً بالإستقرار. لكنهم بدأوا أيضاً بالتفاعل مع مدينتي النجف وكربلاء التي إحتوت على مخازن للحبوب وأسواق للتجارة، ما لم تتوقعه السلطات العثمانية هو أن تجذب مدينتي النجف وكربلاء رجال القبائل وتؤثر عليهم كوسائل للتبشير الشيعي. فبحلول أوائل القرن العشرين، تحولت معظم هذه القبائل المستقرة إلى المذهب الشيعي. وبسبب هذه التحولات، أصبح غالبية سكان العراق في ذلك الوقت من الشيعة: ثلاثة وخمسون بالمئة بحلول عام 1919 م، وستة وخمسون في المائة بحلول عام 1932 م⁽²⁴⁾.

على النقيض من ذلك، ظلت القبائل التي إختارت عدم الاستقرار في المدن الزراعية على المذهب السني، ومحافظة الأنبار الكبيرة غرب العراق شاهدة على ذلك. إن تداعيات هذا التطور وتأثيره على تاريخ

(24) Yitzhak Nakash(1994). The Conversion of Iraq's Tribes to Shi'ism. International Journal of Middle East Studies, 26(3), p.443.

العراق كانت هائلة. لأنه أنتج ولأول مرة تناقضا بين واقع كون الشيعة أغلبية سكانية في البلد وبين الحقيقة التاريخية لتولي السنة زمام الحكم في العراق منذ عهد الأمويين والعباسيين وإلى العصر العثماني - بإسثناء الصفويين - . الأمر الذي ولد نزاعا بين إدعاء حديث لطرف، وأماني موروثة عند الطرف الآخر، في حين إنحدر كلهم في الأساس من أصل واحد، ومنشأ إختلافهم وعدائهم كان في الحقيقة مجرد مسألة زمن وجغرافيا.

من أرق الأمان

إلى عراق الآن

ولادة العراق الحديث بين التشوه والإجهاض

إبان الحرب العالمية الأولى تجهزت بريطانيا لتحريك قواتها من مصر نحو الكتائب العثمانية المنيعه في فلسطين، وإعتقدوا بأن فرص الفوز عليهم ستكون أفضل لو إستطاعوا الحصول على دعم القبائل العربية المحلية، فعلقوا آمالهم في ذلك على الشريف حسين بن علي أحد الشخصيات البارزة في الحجاز ووالي الدولة العثمانية فيها. حسين بن علي كان يعتبر هاشميا مما زاد من مكانته وجعله هو وولديه عبد الله وفيصل الإختيار الأنسب لخطة البريطانيين. مضامين الإتفاق بين بريطانيا وحسين بن علي لا تزال محل نقاش إلى يومنا هذا، لكن من المتيقن أن بريطانيا وعدت بن علي بأنه في حال قدم المساعدة العسكرية والدعم لإسقاط الدولة العثمانية فإن بريطانيا ستسلم له حكم معظم الأراضي العربية من سواحل البحر المتوسط إلى مشارف إيران، ما سيجعل بإمكانه أن يعيد إحياء الخلافة الإسلامية وأن يعلن عن نفسه الخليفة الأول للعصر الإسلامي المعاصر.

في عام 1916م، وبناءً على هذا الوعد، أطلق

حسين ما أصبح يُعرف بـ-ثورة الصحراء-، وهي حملة من هجمات الكر والفر التي قامت بها القبائل العربية ضد القوات العثمانية وسككها الحديدية. كان فيصل نجل الحسين هو القائد الميداني الإسمي لها، لكن التكتيكات والقيادة الميدانية عُهد بها إلى حد كبير لعالم آثار بريطاني شاب تحول إلى ضابط في الجيش إسمه تي.إي. لورنس، الذي تم الإشادة به في فيلم شهير بإسم -لورنس العرب-. بحلول ديسمبر 1917م، مكنت النجاحات المشتركة للقوات النظامية البريطانية والقبائل العربية القائد البريطاني الجنرال السير إدموند اللنبي، من دخول القدس منتحلاً صفة الفاتح لها - وأيضاً في نظر رسامي الكاريكاتير البريطانيين، مكمل المهمة التي تركها ريتشارد قلب الأسد من غير إتمام قبل 725م عامًا في نهاية الحملة الصليبية الثالثة -. مع نهاية الحرب وصلت القوات البريطانية والعربية إلى دمشق. هناك، في عام 1920م، أعلن المؤتمر العربي السوري المؤسس حديثاً قرار تنصيب فيصل ملكاً.

كان حكم فيصل بالطبع قصيراً جداً، فعندما أعلن

فصل عام 1920 م عن تأسيس مملكة عربية مستقلة في دمشق، طرده الفرنسيون بوحشية وإذلال واستولوا على سوريا - التي إشتقوا منها فوراً دولة جديدة أسموها - لبنان -، رعاية لمصالح وكلائهم القدامى هناك -المسيحيين الموارنة-.

لم يكن للحلفاء الأجانب أي نية في تكوين خلافة عربية بل خططوا مسبقاً لتقسيم الدول العربية فيما بينهم إلى خمسة دول : سوريا، فلسطين، أرمينيا، الأناضول وجزيرة العراق، ضمن إطار اتفاقية سايكس-بيكو الشهيرة. ولم يته الأمر عند هذا الحد، فقد قام البريطانيون بعدها بفعل ضاعف لاحقاً من إحساس العرب بالظلم والخيانة. ففي ذلك اليوم، أرسل وزير خارجية بريطانيا العظمى آرثر بلفور، إلى راسمالي يهودي بارز، اللورد روتشيلد، خطاباً رسمياً يعلن فيه عن نية بريطانيا بتأسيس وطن لليهود في فلسطين - بعد أن أعربوا عن نية مماثلة للقيادة الصهيونية بمنحهم أوغندا خلال الحرب العالمية الأولى - . منذ ذلك الحين وإلى يومنا هذا، لا تزال دوافع بريطانيا الحقيقة في إصدار

وعد بلفور محل نقاش. لكن إلى حد ما نشأ وعد بلفور من الإعتبارات البريطانية للإنتفاع السياسي والإستراتيجي، من ضمنها توقعهم بأن المستوطنين اليهود الممتنون في فلسطين سيكونون بمثابة حامية بريطانية بالوكالة من شأنها أن تساعد في حماية سيطرة بريطانيا على قناة السويس المهمة، وكذلك لتوفير مدخل للوصول إلى العراق وإيران.

لإبقاء الإستعمار الصهيوني بالحجم المراد من جهة، ولتهدئة المخاوف العربية وتلطيف معاملتهم الشنيعة للهاشميين من جهة أخرى، قامت بريطانيا عام 1921م بتقطيع الجزء الشرقي من الإنتداب على فلسطين والإعلان عنه ككيان منفصل أسمته -شرق الأردن-. منحت بريطانيا إمرة الأردن لعبد الله نجل الحسين بن علي، وفي العام التالي أبلغت عصبة الأمم أن شرق الأردن لن تكون مفتوحة للإستعمار اليهودي - وهو عمل يعتبره العديد من الصهاينة حتى اليوم خيانة لهم -. بعد الحرب العالمية الثانية، سميت شرق الأردن بالملكة الأردنية الهاشمية المستقلة، وما زال يحكمها حتى اليوم نسل عبد الله بن حسين.

أما في العراق، فقد إنتفض العراقيون من جميع الطوائف والأعراق والخلفيات عام 1920م في تمرد مسلح ضد الإنتداب البريطاني. اليوم ينظر العراقيون إلى الثورة الكبرى عام 1920م بفخر على أنها واحدة من تلك المرات القليلة في تاريخهم حيث جمعهم إحساس بوحدة وطنية مشتركة. ومع أن هذا صحيح بالمجمل، إلا أنه في الواقع، لم يكن لتلك المقاومة قيادة مشتركة أو تنسيق حقيقي. فالثوار الأكراد عملوا بشكل مستقل عن العرب ولأهدافهم الخاصة بهم. أما غالبية الثوار فقد كانوا من الشيعة الذين إنتفضوا لأنهم لم يكنوا الكثير من الولاء للشريف حسين، بل في الحقيقة كان رجال الدين الشيعة بشكل عام معادين لما وصفوه بتحالف الشريف مع الإنجليز. علاوة على ذلك، أظهر القادة السياسيون والشيوخ في المدن والقرى العراقية، مثل السيد طالب - أحد الشخصيات المرموقة من البصرة - ميلاً ضئيلاً لإفساح المجال للشريف بأن يحكم في العراق. السيد طالب بصورة خاصة كان له إتصالاته المكثفة مع البريطانيين، آملاً بأن يصبح هو رئيساً للعراق، أو

على الأقل حاكما للبصرة. أما المجتمعات المسيحية واليهودية المزدهرة في العراق وقتها فلم يستسيغوا فكرة الاندماج مع دولة إسلامية يهيمن عليها أناس يحكمون من الحجاز⁽²⁵⁾.

مع ذلك فقد كانت ثورة العشرين ذات زخم كبير وتأثير ملفت، إذ كلفت البريطانيين موارد وطاقات كانوا في أمس الحاجة إليها. لكن في النهاية تم قمع الثورة الكبرى بوحشية من قبل القوات البريطانية، إذ لجئوا إلى تكتيكات الأرض المحروقة والإعتقالات الموجزة مع عمليات الإعدام. ما أدى إلى ترك تسعة آلاف عراقي بين قتيل وجريح، بينما تكبد البريطانيون ألفي إصابة - بينهم 450 قتيل -.

أحد العوامل الحاسمة لنجاح بريطانيا في قمع الحركة الشعبية، كان إستخدامها لعمليات القصف الجوي من خلال سلاح الجو الملكي (R.A.F)، والذي عد نوعا جديدا من أساليب القمع، حيث إنهم ألجأوا على سكان المدن بالقنابل، خصوصا عندما أعرضوا

(25) Adeed Dawisha, Arab Nationalism in the Twentieth Century: From Triumph to Despair (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2003), p. 39.

عن دفع الضرائب، حتى أن ونستون تشرشل منح عام 1920م تصريحاً باستخدام السلاح الكيميائي، غير أنه ما من دليل على أنهم إستخدموه فعلاً.

بمرور الزمن أصبح إحكام السيطرة على العراق وما تطلبه من جنود وآليات عسكرية مكلفاً جداً على بريطانيا، وذلك بسبب المقاومة المستمرة التي نبتت من النفور التاريخي لشعوب بلاد الرافدين من أي سيطرة أجنبية أو كيان خارجي يهدد إستقلالهم، ما جعلت بريطانيا تدرك سريعاً بأنها إذا أرادت لنفوذها في العراق أن يستمر فإنه لا بد من تزيين السيطرة البريطانية بوجه عربي وغطاء من حق تقرير المصير.

لحسن حظهم فقد كان في متناول اليد وجه نافع وحاضر: وجه فيصل بن حسين، الذي طرده الفرنسيون من مملكته العربية الوليدة في دمشق. لذا في عام 1921م، وبعد التشاور في القاهرة مع مسؤولين وخبراء من الشرق الأوسط، بدأ وزير الإستعمار البريطاني آنذاك ونستون تشرشل بعملية تنصيب فيصل ملكاً على العراق. كما قاموا بالقضاء على خصم فيصل الوحيد المحتمل، وهو السيد طالب

المذكور آنفاً، إذ دعاه بيرسي كوكس - المسؤول البريطاني في العراق - لتناول الشاي، ثم إعتقله وقام بترحيله ونفيه إلى سيريلانكا.

بعدها في عام 1922 م، أجبرت المملكة المتحدة فيصل على توقيع معاهدة تمنح بريطانيا السيطرة الكاملة على قرارات العراق السياسية وعلاقاته الخارجية، ثم إستخدموا هذه السلطة لإجبار العراق على قبول إتفاقية ترسيم الحدود بينها وبين الكويت ودولة آل سعود الناشئة. المخطط الحدودي لهذه الإتفاقية (التي يقال أن بيرسي كوكس رسمها بقلمه على الخارطة) كانت تهدف إلى إبقاء جميع الدول المتعاقدة ضعيفة ومعمدة على الوصاية الأجنبية. ما زالت حدود العراق الحالية هي نفسها التي حددتها بريطانيا عام 1922 م وهي أيضاً سبب امتلاك العراق لهذا الساحل الضيق على الخليج العربي. الأمر الذي عده صدام حسين إستخفافاً وإحتج به بعد 68 عاماً كإحدى مبرراته لإحتلال الكويت عام 1990 م، ولم يكن صدام أول حاكم عراقي حاول تصحيح خطأ كوكس بقوة السلاح، فقد حاول عبد الكريم

قاسم قبله أن يضم الكويت إلى العراق وأن يجعلها جزءاً من البصرة كما كانت عليه في العهد العثماني وقبل معاهدة 1899م، حتى أنه عين حاكم الكويت -رئيساً للمقاطعة- العراقية، كما حاول الأخير أيضاً إنتزاع محافظة خوزستان الإيرانية وتسميتها بـ -عربستان- بحجة إحتوائها على أغلبية عربية.

أن يكون النفط أو لا يكون، هذا هو السؤال

قبل الحرب العالمية الأولى كان الإحتياج العالمي للنفط يُلبى على الأغلب من خلال حقول النفط الواقعة في أمريكا وروسيا وليس عن طريق حقول الشرق الأوسط والعراق. لذا عندما سئم ونستون تشرشل من مطالبات فيصل المستمرة بإنهاء الإنتداب البريطاني، وفكر في سحب الوجود البريطاني من العراق بالكامل، نصحه رئيس الوزراء ديفيد لويد جورج بالحذر، قائلاً: - إذا غادرنا الآن، فقد نجد بعد عامٍ أو عامين أننا سلمنا للفرنسيين والأمريكيين واحدة من أغنى حقول النفط في العالم-.

بعدها ومع أن فيصل ظل يلح على بريطانيا بإلغاء الوصاية ومنحه السلطة الكاملة على العراق كما وُعد به قبل المساعدة في الإطاحة بالدولة العثمانية، إلا أن بريطانيا كانت قد إتفقت مسبقاً مع أمريكا -التي بدأت حديثاً بالظهور كقوة كبرى- على إحتكار النفط العراقي ضمن إتفاقية الخط الأحمر، ما نتج عنها ظهور كارتيلات النفط الأنجلو-أمريكية والتي

نهب المتوج النفطي العراقي لعدة عقود⁽²⁶⁾.

في نفس الوقت تقريباً أرسل البريطانيون في نوفمبر 1918 م قوات من بغداد إحتلت ولاية الموصل العثمانية شمال العراق - إذ كانت منطقة معروفة بوجود النفط - الأمر الذي أتى ثماره بشكل كبير. ثم في أوائل العشرينات من القرن الماضي، عمل مصطفى كمال أتاتورك، الأب المؤسس والرئيس الأول لجمهورية تركيا الجديدة، التي أعلنت إستقلالها في عام 1923 م، على المطالبة بضم الموصل إلى تركيا كونها إحتوت حينها على نسبة كبيرة من السكان الأتراك. إلا أن عصبة الأمم أجمعت على قرار ضم الموصل إلى العراق عام 1925 م (وهو قرار لم تكن لتتخذه لولا أن القوات البريطانية كانت قد إستحوذت مسبقاً على الموصل واحتلته). بين استقواء تركيا المستمر والمقاومة الكردية المحلية، كان من المحتمل قريباً أن لا يمتلك فيصل عراقاً على الإطلاق (وقد كان على علم بذلك). لذا في نفس العام، إستغل البريطانيون

(26) See David Fromkin, A Peace to End All Peace The Fall of the Ottoman Empire and the Creation of the Modern Middle East (2nd EDITION. Owl Boks,1989). pp. 534-536

مساعدتهم لفیصل على الإحتفاظ بالموصل لإجباره على منح شركة T.P.C (العائدة كلیا للدول الأجنبية) إمتیاز إستغلال حقول النفط العراقية لمدة خمسة وسبعین عامًا. وفي عام 1929 م، تم تغییر إسمها إلى شركة نفط العراق I.P.C

في عام 1927 م، تم حفر أول بئر للنفط في العراق بالقرب من كركوك، التابعة لنفس ولاية الموصل العثمانية التي عزم البريطانيون على إحتلالها. على الرغم من كل شي فإن هذا البئر كان يجب أن يكون بداية نعمة عظيمة لحكومة العراق وشعبه. ولكنه كان على العكس من ذلك، فمع أن النظام الملكي الهاشمي قد تلقى بعض الأتاوات من أموال النفط، إلا أن حصته من ال-I.P.C- كانت صفر. أصر فیصل في البداية على منح حكومته عشرين بالمئة من ملكية شركة نفط العراق، لكنه أُجبر على أن یوافق على صفقة لا تسمح لحكومته بأي حصص في الشركة. فمساعدة بريطانيا لفیصل في التمسك بالموصل جاءت بسعر باهظ بالفعل.

وهكذا، عندما أعلنت المعاهدة الجديدة الموقعة

مع بريطانيا في عام 1930م بأن العراق دولة مستقلة
تمامًا، فإنها في الواقع لم تكن كذلك على الإطلاق، إذ
لم تكن لحكومة العراق أي سيطرة على ما هو حتى
الآن أهم مورد طبيعي في البلد⁽²⁷⁾. حدث تكرار
مرات عديدة خلال تاريخ بلاد الرافدين الممتد
لآلاف السنين، حيث يصبح إمتيازها الطبيعي لعنتها.

(27) See Thabit A. J Abdullah. A Short History of Iraq. Routledge, 2010. pp. 100-104.

محاولة خلق حس وطني للعراق، أم عملية صنع مسرح قومي للعراق ؟

التأريخ حافل بالدول التي ولد فيها، بعد قرون من الحمل، ما يسميه بنديكت أندرسون بـ-التصور الاجتماعي لمفهوم القومية-. وهذا يتحقق إما على أساس تشابه العرق والثقافة والوحدة اللغوية (كما في ألمانيا) أو على أساس الخبرة المشتركة في التنمية السياسية والوحدة التاريخية (مثل ما حدث في بريطانيا أو فرنسا).

عندما لعبت بريطانيا دور القابلة في مولد العراق الحديث عام 1921م، لم يكن بوسع دولة العراق الجديدة أن تدعي إمتلاكها لأي من هذه العناصر الموحدة. فقد إنتقل شعبها من كونهم رعايا لإمبراطورية ضمت منطقة ضخمة ومتنوعة، إلى مواطنين تم دفعهم إلى تبني الهيكلية الغربية للدولة القومية. حتى عندما حصل العراق على إستقلاله الرسمي من خلال المعاهدة الأنجلو-عراقية عام 1930م، كان إنطباق مفهوم -الدولة- عليها تبدو

مبالغة بالوصف. فقد إنقسم شعب العراق إلى عدد كبير من الهويات المتضاربة التي غالباً ما تدهورت العلاقات بينها بسبب إنعدام الثقة والعداء الناجم عن تجربة تاريخية طويلة. فقد كان كل من عرب العراق وأكراده وتركمانه وفرسه (آنذاك) متأصلين بهويات مميزة ومختلفة. كما تبنى كل منهم مجموعة متنوعة من الانتماءات الدينية: فمنهم المسلم السني والشيعي، الآشوري، المسيحي، الكلدان، اليهود، اليزيديين والمندائيين وغيرهم. وما زاد الأمر تعقيداً، هي التنافسات العميقة والمتجددة بين عشرات القبائل، فضلاً عن ما إتسمت به العلاقات بين المدن والقرى من العداء و إنعدام الثقة منذ آلاف السنين. لذا فإن كل هذه الإعتبارات كانت بالكاد نقطة إنطلاق جيدة لبناء أمة.

علاوة على ذلك كله، تم توكيل مهمة بناء دولة موحدة من هكذا أجزاء متباينة في عام 1932م إلى أشخاص غرباء أتى بهم البريطانيون من شبه الجزيرة العربية إلى بغداد. فقد كان الهاشميون الذين حكموا العراق مجرد زمرة صغيرة، فُرضت على البلاد من

الخارج، بينما إستمر إستبعاد غالبية السكان من أي مشاركة ذات مغزى في الحكومة.

لقد هيمن على قصة العراق الحديث مجريات الصراع بين مقاومة العراق لمحاولة فرض هوية وطنية عليه من طرف، وبين كفاحة المستمر من أجل أن يخلق واحدة لنفسه من طرف آخر. فالقرن العشرين، حافل بالأحداث التي أصبح فيها العراق مهداً للهويات الجديدة وأحياناً المتنافسة. إذ أصبحت بوتقة صنعت فيها الهويات ومن ثم عرضت على الساحة لتكون رداً على التطفل والسيطرة الغربية.

إستغل فيصل ومسؤولوه مفهوم -العروبة - الناشئة كوسيلة مناسبة لإضفاء الشرعية على وجودهم في العراق وكذلك لتجاوز الانقسامات الطائفية والقبلية لأبناء الشعب العراقي ولخلق أساس جديد للمواطنة في الدولة العراقية. لكن لسوء حظ العراق ومستقبله، لم يكن هناك مكان حقيقي للأكراد أو التركمان في هوية عراقية قائمة في الغالب على أساس العروبة.

بمرور الوقت، وجد المفهوم القومي موطناً

مرحّباً في الجيش العراقي. لكن الجهود المبذولة لتطوير الشعور بالقومية العربية العراقية كانت تدار بشكل رئيسي في المدارس العراقية وبإشراف ساطع الحصري (مسؤول تعليم عثماني كان قد خدم فيصل كمدير للتعليم في مملكته السورية المجهضة، ثم عينه عام 1921 م مديراً للتعليم العام في العراق).

أهم أسلوب إستخدمه ساطع في تشكيل وغرس مبادئ العروبة في العراق هو من خلال برنامج التعليم الوطني الذي وظف الكتب المدرسية لإستهداف شباب العراق في المدارس. بإستخدام النموذج الألماني للبناء القومي، صمم الحصري الكتب المدرسية لإعطاء الطلاب الصغار إحساساً قوياً بأجداد الشعب العربي العظيم في الماضي، إضافة إلى إقناعهم بأن الشعب العربي قد إنقسم لسبب مصطنع وقسري، أولاً بفعل الحكم العثماني، ثم بعد ذلك بنظام الإنتداب الأوروبي. وفقط من خلال إعادة توحيد تلك الأجزاء المنفصلة يمكن للشعب العربي أن يجدد تلك العظمة ويصبح أمة مجيدة من جديد. وهكذا فإن أول جهد مؤسساتي لتكوين هوية

وطنية للعراق كانت مستندة على موقع طموحات ومصالح حكومة فيصل من إعراب العراق، وليس بناء على مراعاة وإعتبار مصالح الشعب العراقي وما يحتاجه لبناء حياة مستقرة وهائلة.

إلى جانب ذلك، ظهر في الوقت نفسه حركة قومية عراقية منافسة وأكثر محلية، ركزت على العظمة القديمة للعراق وعلى العراقيين أنفسهم - بغض النظر عن دينهم أو طائفتهم - بإعتبارهم أحفاد وورثة حضارة سومر وبابل القديمة. حتى قبل الحرب العالمية الأولى، لَمَّح العديد من المؤلفين - من بينهم شيعة ومسيحيون وعرب سنة - ممن كتبوا في مجلة -لغة العرب- إلى هذا المفهوم وأشادوا بهوية عراقية وطنية خالصة بالإضافة إلى التعاون السني- الشيعي ضد القوات البريطانية⁽²⁸⁾.

لكن ربما من الساخر (أو لعله المبكي) معرفة أن من أكبر المساهمين في تطور هذا الاتجاه هي أحد كبار مسؤولي فصيل -المستشارة البريطانية جيرترود بيل، التي أعانت قبل وفاتها السابق لأوانه عام 1926م

(28) Reidar Visser, -Operation Iraqi Partition, - Gulf Analysis, posted 1 September 2010.

على تأسيس المتحف الوطني العراقي في بغداد.
هكذا، وبحلول ثلاثينيات القرن الماضي، بدأت
نسختان مترابطتان ولكن مختلفتان من مبادئ القومية
بالتطور في العراق. فعلى الرغم من أنهما يشتركان في
فكرة التأكيد على الوحدة الثقافية والسياسية للعرب،
إلا أن نسخة واحدة أفردت مكاناً خاصاً لمفهوم
المواطنة التي ركزت بشكل أدق على العراق وأكدت
هويتها المميزة ضمن الإطار العربي الأكبر.

تنافست الرؤية القومية الوسطية مع فكرة القومية
العربية المحضة التي كانت تنتشر في جميع أنحاء
الشرق الأوسط - مؤدياً كما سنرى، إلى عواقب
وخيمة على تاريخ العراق وعلاقاته مع العالم
العربي-.

على الرغم من أن مبدأ العروبة أكد على أساس
علماني وغير ديني، إلا أن الغالبية العظمى من العرب
الذين آمنوا به في الشرق الأوسط كانوا في الواقع
مسلمين. وبشكل محدد من المسلمين السنة. لذا
أصبحت الحركة القومية العربية في العراق تُنسب
بشكل متزايد إلى الأقلية السنية الحاكمة فيها في ظل

حكومة فيصل (وفي ظل أغلب الحكومات التي حكمت العراق حتى عام 2003م) مما دعا الشيعة العرب في العراق إلى التشكيك والإدعاء بأن هذه الحركة مجرد محاولة للإبقاء عليهم كجزء من دولة سنية كبرى في الشرق الأوسط. تعزز هذا التصور في عام 1933م عندما وصف كتاب جديد شيعة العراق على أنهم -ساسانيون-، في إشارة إلى الغزو العربي للفرس الساسانيين في بلاد ما بين النهرين خلال القرن السابع، وإتهمهم أيضاً بأنهم يكتنون الولاء للدولة الشيعية في إيران. رد الشيعة على هذا الإتهام كان لافتاً ودرامياً، حيث هاجموا قوات الأمن التابعة للحكومة، وربطوا علمها الجديد رمزياً براية قوات الخليفة يزيد ابن معاوية ! .

أنظر لكل الفئات، أيعجبك أي الجهات ؟

ولدت من تناقضات حكومة فيصل في العراق
إتجاهان سياسيان متضادان أحدهما أخذ يتجذر
بين صفوف مسؤولي الحكومة العراقية متجسدة
بأوضح صورها في شخص نوري السعيد، الذي
رأى مصلحة العراق (الأصح مصلحته) في الإبقاء
على تبعية الدولة لبريطانيا. أما الإتجاه الآخر فقد
بجل الأفكار القومية وعمل على جعل مبدأ العروبة
المحرك الأساسي لجميع توجهات الدولة العراقية،
وهذا الإتجاه أسس جذور قوية في معقل الجيش
العراقي. على العموم فقد كان فيصل يأمل في تطوير
جيش كبير من المجندين، ولكن مشرفوه البريطانيون
أصروا على أن يكون الجيش صغيراً نسبياً ومعززاً من
قبل القوات البريطانية، مع ذلك نما الجيش العراقي
خلال الثلاثينيات، وخاصة بعد إقرار التجنيد
الإلزامي في الأربعينيات من القرن الماضي، وأصبح
سلاح الضباط أقوى مركز للفكر القومي في البلاد.
بحلول عام 1936م، بات الجيش قويا لدرجة
تمكن فيها القائد العام بكر صدقي، من الإطاحة

بالحكومة المدنية.

أما الإتجاه الآخر والمتمثل بنوري السعيد، فقد كان لهم شأن مختلف. من مواليد بغداد عام 1888 م ومن أصول متواضعة يعد نوري السعيد أبرز شخصية في تاريخ الدولة العراقية الهاشمية من ميلادها وإلى يوم زوالها.

بين عامي 1930 م و 1958 م خدم في عدة مناصب منها رئاسة الوزراء، وحتى عندما لم يكن رئيساً للوزراء، كان بارعاً في قدرته على التلاعب بالحكومة لصياغة السياسات المطلوبة. سعت سياساته عمومًا إلى الحفاظ على مصالح النخبة الحاكمة ومالكي الأراضي القبليين، وغالبًا ما كان ذلك يتعارض مع الصخب الشعبي المتزايد والمطالبات بإصلاح الأراضي الزراعية وإحلال العدالة الإجتماعية للفقراء والطبقات العاملة. كما إنه مال إلى تطبيق هذه السياسات بقمع ووحشية، لاجئاً عند الضرورة إلى تسخير الجيش والشرطة لقمع المعارضة الشعبية.

تزايد الإستياء الشعبي إلى أن أدى في أوجه عام 1941 م إلى إستبعاد نوري السعيد عن رئاسة الوزراء

وتنصيب القائد القومي المعادي للوجود البريطاني رشيد عالي الكيلاني بديلا عنه. سرعان ما جلب رشيد لنفسه عدااء البريطانيين من خلال تعاطفه مع كل من الزعيم الفلسطيني المناهض للصهيونية الحاج أمين الحسيني الذي فر إلى بغداد عام 1939 م، ونظام أدولف هتلر في ألمانيا النازية، الذي كان البريطانيون في حرب عويصة ضده. أعلن رشيد عالي بعدها أن حكومته لن تمنح لبريطانيا حقوق التمرکز العسكري المتفق عليها في معاهدة 1930 م، أجبر البريطانيون من خلال عناصرهم داخل البلد رشيد عالي على التنحي، وعندما أطاحت القيادة القومية العربية للجيش العراقي بدورها بالحكومة الجديدة وأعدت تنصيب رشيد عالي كرئيس للوزراء، هبطت الكتائب البريطانية في البصرة وأعدت إحتلال البلاد بعد التغلب على القوات العراقية⁽²⁹⁾. هكذا أعيد النظام الملكي وعاد نوري السعيد إلى رئاسة الوزراء برضا بريطانيا وبدأ على الفور بتطهير القوميين العرب من رتب الجيش، وكذلك أغلق النوادي والمنظمات التي

(29) See Adeed Dawisha. Iraq: A Political History from Independence to Occupation. Princeton University Press, 2009. p.136-147 .

كان القوميون من بين أعضائها.

عموماً إستمر نوري في الهيمنة على سياسة العراق بعد الحرب العالمية الثانية، لكن الإحتلال البريطاني عام 1930 م لم يبق من مصداقيته في أعين العديد من المواطنين وخاصة القوميين منهم شيئاً، كما أنذر بهلاك النظام الملكي الهاشمي. فعلى الرغم من إستمرارها لمدة ثلاثة عشر عاماً أخرى، إلا أنها كانت تغرق تدريجياً في المد المتصاعد للغضب القومي العربي المناهض للغرب الذي بلغ ذروته في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي في جميع أنحاء الشرق الأوسط. كما إن الوجود البريطاني بدأ هو الآخر بالاختفاء بعد الحرب العالمية الثانية، ليحل محله حامل اللواء الغربي الجديد في المنطقة: الولايات المتحدة الأمريكية.

من عام 1950 م وإلى نهاية النظام الملكي الهاشمي عام 1958 م، سيطر على تاريخ العراق مجريات الصراع بين النظام الهاشمي الخاضع للغرب لكن المتمركز حول العراق وبين المد الوطني العربي المعادي للغرب والغير متمحور حول العراق.

إلى حد كبير، يمكن النظر إلى هذا الصراع أيضا على أنه متجسد في رجلين: الزعيم العراقي نوري السعيد، والضابط المصري جمال عبد الناصر، الذي أصبح بحلول عام 1955 م القائد الأكثر شهرة في تاريخ الحركة القومية العربية. كان كل منهم عازما على جعل بلاده زعيمة العالم العربي. يمكن للمرء أن يلاحظ التشابه في هذا السيناريو مع أدوار مصر وبلاد ما بين النهرين كقطبين كبيرين للقوة والحضارة في الشرق الأوسط منذ آلاف السنين.

على الرغم من أن أفراد العائلة الهاشمية مثلوا رؤساء العراق الرسميين، إلا أن نوري السعيد كان رجل السلطة الحقيقي للسياسة العراقية خلال هذه الحقبة. لتنفيذ سياساته، كان نوري يعتمد على النفوذ المالي الذي وفرته العائدات النفطية التي بدأت أخيرًا بالتدفق إلى خزانة الدولة بحلول منتصف الخمسينيات. في عام 1952 م، وبالإستفادة من نموذج إبتكرته فنزويلا لتأمين حصة أكثر إنصافاً من أرباح النفط، وأيضاً بالتعلم من تجربة إيران المجاورة (عندما قام الزعيم القومي محمد مصدق

بخطوة وطنية لكن متهورة أمم فيها النفط بالكامل لشعبه، ما دفع أميركا للإطاحة به وتتويج الشاه بهلوي بداله على الرغم من أن الأول كان منتخبا بشكل ديموقراطي)، عقدت الدولة العراقية إتفاقية تقسم فيها أرباح النفط إلى النصف مع شركة I.P.C الأجنبية بين عامي 1954-1951م، مما أدى إلى إرتفاع مساهمة عائدات النفط لميزانية العراق من ثلاثين إلى خمسة وستين بالمائة، إرتفع إنتاج النفط من 4.6 مليون طن في عام 1946م إلى 35.8 مليون طن في عام 1958م، وزادت الإيرادات من ما يزيد قليلاً عن مليوني دينار عراقي إلى ما يقارب الثمانين مليوناً في تلك الفترة. في عهد نوري، تم تخصيص سبعين بالمائة من أموال النفط لمجلس التنمية من أجل تمويل مشاريع البنية التحتية. بهذه الأموال، وفي الوقت الذي كان فيه عشرات الآلاف من العراقيين غير قادرين على إستكمال التعليم أو الرعاية الطبية أو حتى الطعام، وكان متوسط العمر المتوقع للفلاح العراقي 39 عاماً فقط، قرر نوري أن يمول فقط المشاريع (مثل إستصلاح الأراضي وأنظمة الري)

التي تعود على مالكي الأراضي بالنفع وتعزز الدعم السياسي للنظام بين النخبة والأغنياء، ومتى ما إحتجت أي جماعة على سياساته، كان بإمكانه اللجوء إلى جيش مطاوع لسحقها. كان هذا الأسلوب لا يمثل سابقة جديدة حتى بالنسبة للسياسة العراقية المعاصرة، بل كان منهجاً متبعاً منذ الأيام الأولى للعهد الهاشمي، إذ إعتد فيصل الأول قبله على الجيش البريطاني - وخاصة سلاح الجو الملكي البريطاني - لفرض أوامره، الفرق الوحيد هو أن في الخمسينيات من القرن الماضي، كان نوري يبتكر نموذجاً أوسع إستمرت الأنظمة العراقية المستقبلية بإستخدامه (من عام 1958م وإلى نهاية نظام صدام حسين عام 2003م) : وهو إستخدام أرباح النفط لشراء الدعم الشعبي وتسخير جهاز أمن الدولة لسحق المعارضة.

عندما وقع نوري على إتفاقية بغداد التي أدخلت العراق في تحالف مع الدول الإمبريالية الغربية في المنطقة عام 1955م، إستشاط القوميون العرب في العراق غضباً. وما زاد من حدة غضب العراقيين هو

إنضمام بريطانيا إلى إسرائيل في حربها ضد جمال عبد الناصر خلال أزمة قناة السويس. عندها اندلعت أعمال الشغب في البصرة وبغداد والموصل، وحتى في مدن المزارات الشيعية في النجف و كربلاء، الأمر الذي أجبرت الحكومة على إعلان الأحكام العرفية لقمع الحركة الشعبية.

لسوء حظ النظام الملكي، إنتشر الغضب بعدها في الجيش العراقي أيضا، حيث تمرد كادر من الضباط الوطنيين الأصغر سناً وخططوا لتخليص العراق من النظام الهاشمي. هاجم الضباط الأحرار في 14 يوليو 1958 م، بقيادة العميد عبد الكريم قاسم والعقيد عبد السلام عارف على العاصمة بغداد وسيطروا عليها وعلى القصر الملكي بسرعة، ثم إقتادوا الصبي اليافع فيصل الثاني وولي العهد الأمير عبد الإله ومعظم أفراد الأسرة الهاشمية إلى ساحة القصر وقتلوهم بالرصاص. تمكن نوري السعيد من الهرب ليوم واحد، ولكن في اليوم التالي تم العثور عليه في شوارع بغداد وهو يحاول الهروب مرتدياً عباءة نسائية، فأطلقوا عليه الرصاص وقاموا بدفنه، إلا أن

مجموعة من الحشود الغاضبة سرعان ما قامت بنش قبره وجر جثته في الشوارع. ويقال، أن أحد الضباط العراقيين قام بقطع أصابع نوري السعيد وقدمها إلى جمال عبدالناصر في القاهرة كهدية، ما أثار إشمئزاز ناصر⁽³⁰⁾.

وهكذا إنتهت حياة ومهنة رجل سيطر على الحياة السياسية في العراق وجسد الهيمنة البريطانية على تلك الأرض طوال فترة الحكم الملكي. كما إنتهى بذلك أيضا النظام الملكي الهاشمي في العراق، ولم تقم له قائمة بعدها. هذا النظام الذي تم إنشاءه على صورة النموذج البريطاني للحكومة الدستورية، وكان قادتها يأملون في أن تصبح دولة قومية عربية مستقلة تتمتع بحكم ذاتي حقيقي. لكنها أُجبرت على البقاء تحت الرعاية الغربية، كما وتم إخضاع تطلعاتها الديمقراطية لأهواء نخبة ضيقة من وجهاء المدن ومالكي الأراضي، الذين كان دافعهم الجشع وتحقيق المصالح العائلية، وليس خدمة الصالح العام أو بناء أمة. بهذا الأسلوب، قاموا بتنفيذ معظم

(30) Yevgeny Primakov. Russia and the Arabs: Behind the Scenes in the Middle East from the Cold War to the Present, trans. Paul Gould. Basic Books, 2009. p. 2 .

المواطنين إلى أن تم إنهاء النظام على يد الذين أصبحوا
العناصر المهيمنة في السياسة العراقية: الجيش والحركة
القومية العربية.

مد وجزر، من قاسم لبكر

الثورة التي أنهت النظام الملكي وأقامت جمهورية في العراق عام 1958م رافقها إستمرار نمط الدولة الإستبدادية، على شكل ديكتاتورية عسكرية تفرض الأمر الواقع، وبقيادة العميد عبد الكريم قاسم، الذي أصبح رئيس وزراء الحكومة الجديدة وأيضاً قائداً للجيش. على الرغم من ذلك كان لدى العديد من العراقيين خلال السنوات الأولى من حكم قاسم، آمال كبيرة في نظام أكثر شمولاً يميل إلى تلبية إحتياجات الفقراء في الريف والحضر للتعليم والرعاية الصحية. تضمنت القيادة الجديدة تمثيلاً للسنة والشيعة والأكراد على حد سواء. لكن القانون الجديد الذي تم سنه لإعادة توزيع الأراضي لمساعدة فقراء الريف أكسب قاسم عداء طبقة الملاكين القدماء، الذين كانوا من أشد المؤيدين للنظام الملكي. كما إن قانوناً جديداً آخر مصمم لتحسين حقوق المرأة ووضعها القانوني بالإضافة إلى توجهات قاسم العلمانية وإحتضانه للشيوخ، جلبت إليه عداء المتحفظين من رجال الدين و المتشددين. لذا

أبُتلي قاسم في العامين الأخيرين من حكمه بالحرب الأهلية مع الأكراد وحزب البعث. وهكذا كانت الوحدة الوطنية العراقية ممزقة عشية إسقاط حزب البعث لقاسم عام 1963 م.

مهما كانت إخفاقات عبد الكريم قاسم كيف يكون قاسم شيوعياً وقومياً في آن واحد، فإن بعض مبادراته كانت تهدف إلى تحقيق أحد أهم أهداف الحركة القومية: وهو الوقوف في وجه القوى الإستعمارية الغربية وشركات النفط التابعة لها. إذ وضع قاسم نفسه بشكل مباشر ضد الولايات المتحدة من خلال إخراج العراق من ميثاق بغداد والتوجه إلى الإتحاد السوفيتي للحصول على مساعدات عسكرية وإقتصادية (ما يعد بلا شك أحد الأسباب التي دفعت الولايات المتحدة إلى أن لا تنطق ببنت شفة عندما أطاح به نظام البعث وقتله - بل وربما شجعت ذلك -). أبعد قاسم أيضاً يد الهيمنة الأجنبية المتمثلة بشركة النفط العراق (IPC) عن الإقتصاد العراقي. فعندما رفضت شركة نفط العراق زيادة حصة الحكومة من النفط، أصدر

قانونًا في عام 1961 م بنزع ملكية 99.5% من إمتياز الشركة على أساس أنها فشلت في إستغلال الحقول النفطية بشكل مناسب، ثم شكل شركة النفط الوطنية العراقية (INOC) كأداة حكومية لإستغلال هذه الحقول. رداً على ذلك، خفضت شركة نفط العراق الإنتاج لتجويد حكومة قاسم. إستمر هذا النزاع ذهاباً وإياباً حتى عام 1967 م، عندما قرر نظام عبد السلام عارف أن يكون لشركة النفط الوطنية العراقية حقوقاً حصريّة في حقل الرميلة النفطي الشاسع في الجنوب (لتطوير هذا الحقل، إتجه العريف إلى الإتحاد السوفيتي). وبحلول عام 1973 م تمكن حزب البعث أخيراً من تحويل ال I.P.C إلى شركة وطنية والسيطرة على جميع إمتيازات النفط الأجنبية الأخرى في البلاد.

لم يكن السيطرة على النفط كل ما تفوق فيه نظام البعث على قاسم، بل كان أيضاً أكثر إستبداداً وعنفاً. فعندما تولى البعث السلطة لفترة وجيزة في شباط 1963 م، شنوا حملة صارمة على الحزب الشيوعي العراقي وقتلوا ما يصل إلى ثلاثة آلاف

عضو. بحلول تشرين الثاني من نفس العام، أُطيح بحزب البعث ليتبعها دكتاتورية عسكرية إستمرت خمس سنوات، أولاً تحت حكم عبد السلام عارف، ثم بعد وفاته في حادث تحطم مروحية، بقيادة شقيقه عبد الرحمن عارف⁽³¹⁾.

في عام 1968 م، إستعاد حزب البعث السلطة وأسس دكتاتورية ترأسها في البداية الضابط العسكري البعثي أحمد حسن البكر، لكنها أصبحت بشكل متزايد تحت سيطرة ملازمه ونائبه صدام حسين. الذي أبعد البكر عام 1979 م وحكم العراق رئيساً له حتى أطاح به غزو عام 2003 م.

(31) Charles Tripp. A History of Iraq. by Cambridge University Press; 3rd edition (2007) pp. 164–177.

بدايات صدام وملحمة العشرين عام

في عهد صدام، وصل مستوى الإستبداد في العراق إلى حد لم يسبق له مثيل. إعتمد صعود صدام إلى السلطة جزئياً على تطويره وسيطرته على جهاز أمن ومراقبة عالي التنظيم ومتنوع المهام (المخابرات)، والذي وُصف حتى بأنه أفضل جهاز سري منظم وكفوء في العالم العربي. تضمنت وظائفها المراقبة الألكترونية، العمليات السرية، مكافحة التجسس، البروباغاندا، المراقبة والأمن الصناعي العسكري. إضافة إلى توظيف الشرطة السرية، التعذيب، السجن، الإعدام بإجراءات موجزة مع بيروقراطية هائلة تم توظيفها لحفظ الملفات الخاصة بالمعارضين المشتبه بهم. عزز صدام سلطته من خلال ترهيب المنافسين والمعارضين والقضاء عليهم سواء في الجيش أو في المجتمع العراقي ككل. فخلق ما سماه أحد المعلقين بـ-جمهورية الخوف-.

قام صدام أيضاً بإضفاء رمزية شخصية على ذاته وحاول تصوير نفسه على أنه تجسيد حي للدولة العراقية. محاولاً خلق صورة مماثلة للطريقة التي

جسد فيه جوزيف ستالين الإتحاد السوفيتي وأدولف هتلر ألمانيا النازية. لكن على الرغم من جهوده الجبارة لإبراز نفسه على أنه بطل العراق، وبطل العالم العربي، وزعيم حزب البعث، فإن قدرة صدام على حكم العراق إتمدت في النهاية إلى حد كبير على ولاء نواة متماسكة من الأصدقاء القدامى والعلاقات العائلية . فبدلاً من الأيديولوجيا، كان الأساس الحقيقي لسلطته هو روابط القرابة والمحسوبية التي ميزت الكثير من مجتمعات بلاد الرافدين منذ فجر الحضارة. وقد تعززت قدرة صدام على إستخدام علاقات المحسوبية هذه في سبعينيات القرن الماضي من خلال المردود الهائل للثروة النفطية.

فبين عامي 1972 و 1980 م، إرتفعت عائدات النفط في العراق من 575 مليون دولار أمريكي إلى 26 مليار دولار أمريكي أو أكثر. مع تدفق مليارات الدولارات إلى خزينة العراق، إستخدمت حكومة البعث هذه الأموال أولاً وقبل كل شيء لخدمة مصالحها الخاصة، ولكن لتحقيق هذه الغاية فقد قدمت للعراقيين مستوى من المعيشة لم يشهده أحد

من قبل خارج طبقة النخبة. فبحلول عام 1980 م، كان العراق من منظور معايير التعليم والخدمات الصحية ومستوى الإنتاج الصناعي وتوفر الكهرباء على نطاق واسع من بين أكثر الدول تقدمًا في العالم العربي. من ناحية أخرى، أدى إستخدام عائدات النفط لزيادة السلع والخدمات بشكل فعال إلى قبول الجمهور لحكم الدولة الإستبدادية المكونة من حزب واحد، والتي كان بمقدورها سحق أي معارضة. كما جعلت عائدات النفط الضرائب غير ضرورية، لذا أمكن للنظام أن يفعل ما يشاء.

كما قام العراق بخطوات أولية لتطوير قدراته النووية من خلال شراء مفاعلات نووية من فرنسا. تم بناء أحد هذه المفاعلات، وهو مفاعل أوزيراك، على بعد أميال قليلة من بغداد. وكما هو متوقع، فقد أثار هذا العمل مخاوف القيادة الإسرائيلية، التي كانت تطالع الإحتشاد العسكري في العراق بقلق متزايد. كان الرد الإسرائيلي مدمرًا وإستفزازيًا، ففي يونيو 1981 م شن سلاح الجو الإسرائيلي هجومًا مفاجئًا على مفاعل أوزيراك وقام بتدميره قبل أن

يصبح شغالا.

هذا الفعل كان مشينا لدرجة دفعت الولايات المتحدة الامريكية والأمم المتحدة الى إدانتها، لكن صدام كان عليه أن يواجه الحقيقة المرة وهو أن العراق كان ضعيفا وقتها. لقد زرع رد فعل صدام على هذا الفعل بذور دماره ودمار العراق، فقد سمح باستمرار تطوير أسلحة كيمياوية وبيولوجية في مواقع سرية منتشرة في جميع أنحاء العراق، وأطلق برنامجاً مصمماً لتزويد العراق بقدرات أسلحة نووية. هذه الخطوة، أكثر من أي عامل آخر، تم الإحتجاج به كمبرر لشن الغزو الأمريكي في مارس 2003م.

في أعقاب الغارة الإسرائيلية مباشرة، لم يقم العراق بأي عمل عسكري إنتقامي. لأن في عام 1981م، كان العراق يتعامل مع تهديد أكثر خطورة جلبه صدام على بلاده. فقد أخذ بيد دولة بدأت بالوصول لمستوى معيشة الدول المتطورة وإحتلت مكانة سامية بين دول الشرق الأوسط، ووضعها على طريق الكارثة والخراب⁽³²⁾.

(32) See John Robertson. Iraq : A History. 2015. Oneworld Publications. pp.478-541

بوادر حرب

9

مدعاة كرب

الحرب الباردة والأحداث المتصاعدة

قبل عام 1980 م، حافظت الأنظمة الجمهورية العراقية دوما طوعا أو كرها على علاقة قريبة مع الولايات المتحدة وبريطانيا، إلى أن أثار قاسم إستعداد البريطانيين بسعيه الخائب لضم الكويت إلى العراق عام 1961 م. برزت فرنسا لفترة من الوقت كمزود عسكري مهم للعراق. لكن قاسم بدأ بمغازلة الإتحاد السوفيتي، وفي عام 1972 م ذهب صدام إلى موسكو وتفاوض على معاهدة صداقة جلبت للجيش العراقي أسلحة متطورة.

في غضون ذلك ظهر وكيل أمريكي قوي هو ملك إيران، الشاه محمد رضا بهلوي، الذي أتت به الولايات المتحدة إلى السلطة عام 1953 م من خلال عملية أجاكس، وهي إنقلاب هندسته وكالة المخابرات المركزية الأمريكية أطاحت برئيس الوزراء الإيراني القومي محمد مصدق.

لذا خلال الستينيات والسبعينيات، كلما قدم الإتحاد السوفيتي المساعدة للنظام البعثي في العراق،

كانت الولايات المتحدة هي الأخرى تقدم المساعدة للشاه بالأسلحة والمعدات. نتيجة لذلك بدأت توترات الحرب الباردة الآن بالتزايد على طول الحدود الإيرانية العراقية، والتي لعبت فيها الحركة الانفصالية القومية الكردية دورًا مميزًا. تحت قيادة زعيمها مصطفى بارزاني. في عام 1945 م، لجأ بارزاني إلى الإتحاد السوفيتي بعد أن فشلت محاولته في إنشاء جمهورية كردية انفصالية، ولكن في عام 1971 م، مكنته تقلبات سياسات الحرب الباردة أن يطلب المساعدة من أعداء الإتحاد السوفيتي: شاه إيران وإسرائيل والرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون، الذي حول وكالة المخابرات المركزية بتزويد بارزاني بمساعدات مالية قيمتها 16 مليون دولار أمريكي. في عام 1974 م اندلعت حرب واسعة النطاق بين مقاتلي بارزاني وقوات البعث العراقية. هرع السوفيت لمساعدة بغداد، وقدموا طائرات مقاتلة من الطراز الأول وطيارين سوفيت لقيادتها. لكن في عام 1975 م، توصل العراق إلى إتفاق مع الشاه (في معاهدة عُرفت باسم إتفاقية الجزائر. كره صدام

حسين هذه الإتفاقية كثيرًا وتراجع عنها بعد خمس سنوات لأنها كانت مجحفة بحق العراق). بعدها تخلص كل من الشاه والولايات المتحدة عن برزاني وأنهيا مساعدتهما له، فاضطر إلى الفرار من البلد واللجوء خارج العراق.

في إيران. أدى السخط الشعبي المتزايد من سياسة الشاه الخانعة وسيطرة الولايات المتحدة على مقدرات الدولة لاحقًا إلى ثورة شعبية عارمة أسقطت حكم الشاه وأجبرته على الفرار والمكوث في المنفى. على الرغم من أن الثورة تضمنت شخصيات من مختلف الأطياف السياسية، من الماركسيين والليبراليين والعلمانيين إلى الإسلاميين المحافظين، إلا أن زمام الأمور سرعان ما أصبحت في يد روح الله مصطفى بن أحمد الموسوي الخميني الذي عاد من المنفى في باريس وأعلن عن إيران جمهورية إسلامية تحت حكم ولاية الفقيه عام 1979 م.

أما في العراق فقد كان لدى صدام حسين كل من الدافع والفرصة لمهاجمة إيران. فإتفاقية الجزائر لعام 1975 م حددت الحدود بين البلدين في الغالب بما

يرضي الشاه، إذ قطعت هذه الحدود الممر المائي لشط العرب إلى نصفين، حيث حددت الإتفاقية منتصف الممر كحدود بين البلدين. أما صدام فقد كان يعتقد أن العراق يستحق الممر المائي بأكمله. ومثل قاسم من قبله، فقد إدعى صدام أيضاً بأن العراق يستحق منطقة خوزستان الغنية بالنفط وذات الأغلبية العربية عبر الحدود الجنوبية الغربية لإيران. رأى صدام أن عمليات التطهير التي قامت بها الحكومة الإيرانية قضت على العديد من الضباط الإيرانيين وأدت إلى زعزعة الإستقرار داخل البلد، كما أن الثورة كلفت إيران الدعم العسكري للولايات المتحدة، كل ذلك جعل صدام يقرر بأن الوقت قد حان لتصحيح أحكام معاهدة 1975 م بالقوة.

نقطة اللاعودة

في 22 سبتمبر 1980م، أرسل صدام ستة فرق عراقية عبر الحدود إلى مناطق جنوب غرب إيران في خوزستان وخرمشهر وعبادان - كلها تحتوي على حقول نفط رئيسية - معتقداً أن القضية ستنتهي بسرعة: أي أن القيادة الإيرانية ستخضع بسرعة بعد إستعراض القوة هذه، وتتقبله على أنه مجرد حلقة أخرى في سلسلة النزاع الإقليمي طويل الأمد بين الأنظمة الإستبدادية الشقيقة، مع كون العراق هذه المرة هو المهيمن. بدلاً من ذلك، ما حصل عليه صدام كان نزاعاً مستميتاً ثم هجوماً مضاداً من عدو عنيد طالب بإزاحة صدام وإنهاء نظام البعث كشرط ضروري لإلقاء سلاحها.

النتيجة : حرب شاملة - بل أطول حرب في القرن العشرين - والتي بحلول نهايتها، كانت قد دمرت كلا الجانبين، وتركت ندوباً لم تلتئم إلى اليوم، كما أعطت الولايات المتحدة ذريعة للتدخل بشكل مباشر في الخليج الفارسي - نذير شؤم لما كان سيأتي - . تميزت الحرب العراقية الإيرانية بتكتيكات وأسلحة

أصبحت مألوفة للغرب في الحربين العالميتين: معارك شرسة بالدبابات والجنود المشاة، حرب الخنادق، موجات من الجنود المشاة يتم إبادتهم بنيران المدافع الرشاشة وبالقصف المدفعي مع قصف جوي للمراكز السكانية الرئيسية. رد الإيرانيون على التفوق العراقي في الأسلحة بهجمات لموجات بشرية شارك فيها مراهقون غير مسلحين كانوا يركضون باتجاه النيران العراقية، بقصد تفجير الألغام الأرضية، وبالتالي فتح الطريق للمشاة الإيرانية. وبشكل غريب فإن تضحياتهم، إلى جانب المعاناة الجماعية للشعب الإيراني خلال الحرب ودعايات النظام الحاكم، أدت إلى تحشيد الشعب الإيراني لدعم النظام ولتقوية الأساس الشرعي لوجوده، لكن الأمر نفسه ينطبق على النظام العراقي، فعلى الرغم من أن بعض الجنود العراقيين هربوا من الخدمة - وعندما تم القبض عليهم عوقبوا بقطع آذانهم وأنوفهم - إلا أنهم لم يتمردوا قط بشكل جماعي، ومع استمرار الحرب وتصاعد التهديد الإيراني على العراق، وقف العراقيون من كل الأطراف ضد الإيرانيين، فقبل ما

بدأت الحرب، عد كل منهم نفسه بشكل رئيسي عضواً في عشيرة أو مذهب أو قومية، ولكن على مدار الحرب أصبحوا ينظرون إلى أنفسهم بشكل متزايد كعراقيين فقط. وهذا مثال آخر عن سيناريوهات الحرب التقليدية التي يخسر فيها الشعب كل ما يملك، بينما تكسب الأنظمة التي سببتها من كلا الطرفين المزيد من القوة والدعم.

بحلول عام 1982م، وصلت الهجمات الإيرانية المضادة إلى العراق ووضعت جيش صدام في موقف دفاعي. فمع أن العراق كان متفوقاً بالعدة العسكرية إلا أن الإيرانيين كانوا متفوقين بشكل كبير في الأعداد البشرية. لذلك إختار صدام تكتيكاً وحشياً: الحرب عن طريق الإستنزاف، والمتمثل بإلحاق أكبر خسارة ممكنة بالنظام الإيراني من خلال تدمير البنية التحتية لإيران بإستخدام القاذفات والقنابل العنقودية. قام صدام بتوسيع قائمة أهدافه لتشمل المراكز السكانية، حيث ضرب العاصمة طهران والمدن الرمزية مثل العاصمة الصفوية في أصفهان ومركز الحوزة في قم. رد الخميني بقصف بغداد والبصرة بالقنابل والمدفعية.

في بدايات صيف 1983م، أطلق صدام العنان لأفزع تكتيكاته: الأسلحة الكيميائية، بدءًا من غاز الخردل وحتى اللجوء إلى إستعمال غاز التابون المميت عام 1984م - والذي عد أول إستخدام حربي لغاز الأعصاب في العالم - . إستعمل نظام البعث السلاح الكيميائي لما يصل إلى 195 مرة خلال الحرب وراح ضحيته حوالي خمسين ألف جندي ومدني إيراني. وبحلول عام 1988م تم إستخدامه أيضا على مدينة حلبجة العراقية داخل الحدود مع إيران والذي راح ضحيته قرابة خمسة آلاف شخص، إضافة إلى أربعين موقع آخر داخل الأراضي العراقية المتنازع عليها مع القوات الإيرانية⁽³³⁾. ربما لم يتوقع صدام التأثير المتأخر لهذه الأفعال، ولكن في الفترة التي سبقت الغزو الأمريكي عام 2003م أصبح إستخدامه للأسلحة الكيميائية في الثمانينيات داخل العراق جزءا أساسيا من المبررات لغزو العراق، إذ إحتجوا بأن من الواضح إمتلاك صدام لأسلحة

(33) Black, George. Genocide in Iraq: The Anfal Campaign Against the Kurds (Middle East Watch Report). Human Rights Watch, 1993. pp xiii-xiv ; Samantha Power: A Problem from Hell : America and the Age of Genocide. 2013. pp.188-189

الدمار الشامل (W.M.D)، وحيث أنه سبق وقام بإستخدامها على شعبه (أي الاكراد)، فلا شك أنه مستعد لإستخدامها مرة أخرى⁽³⁴⁾.

لكن أنى لصدام أن يعلم، ففي عام 1984م وعندما كانت أمريكا تعرف مسبقا أنه إستخدم الغاز السام ضد إيران، كرّمه الرئيس الأمريكي رونالد ريغان بزيارتين وديتين من ممثله دونالد رامسفيلد، ثم أعاد العلاقات الدبلوماسية مع العراق، والتي كانت مقطوعة منذ الحرب العربية الإسرائيلية عام 1967م، مستميلا صدام في الوقت نفسه ببناء أنبوب نفطي جديد لنقل النفط العراقي إلى ميناء العقبة الأردني. إضافة إلى ذلك باعت أمريكا شاحنات وطائرات هليكوبتر للعراق، وقدمت إئتمانات زراعية لصادرات المواد الغذائية، وبالتالي حررت الأموال ليتمكن العراق من شراء المزيد من الأسلحة. بنت شركة بريطانية لصدام مصنعا لإنتاج المواد الكيميائية، كما زودت الولايات المتحدة العراق بعينات بيولوجية (بما في ذلك عينات بكتريا الجمرة الخبيثة والبوتولينوم)

(34) Jeffrey Goldberg, -The Great Terror,- New Yorker, 25 March 2002.

يمكن إستخدامها في تطوير الأسلحة⁽³⁵⁾. في المراحل الأخيرة من الحرب، كان المسؤولون الأمريكيون في وزارة الخارجية مدركين تمامًا أن صدام إستخدم الغازات السامة - الغير القانونية بموجب إتفاقيات جنيف - ضد القوات الإيرانية والمدنيين الأكراد، لكنهم بالكاد إعترضوا على هذه الحقيقة، محتجين بضرورة الحفاظ على علاقات حسنة مع العراق في الوقت الراهن. حتى إنتهاء الحرب، لم يقر الكونجرس الأمريكي بهذا الصدد سوى مشروع قانون يدعو إلى فرض عقوبات إقتصادية ضعيفة على العراق، لكن مشروع القانون هذا لم يمرر أبدًا ولم يتم تشريعه حتى إنتهاء الحرب. الأمر الذي أصاب البعض في الكونجرس بالذهول من موقف الولايات المتحدة الضعيف، حتى أن السيناتور ويليام كوهين من ولاية مَين صرح قائلاً : -إن رائحة النفط ولون المال هي التي أفسدت مبادئنا. -⁽³⁶⁾

(35) U.S. Senate Committee on Banking, Housing and Urban Affairs, U.S. Chemical and Biological Warfare-Related Dual-Use Exports to Iraq and Their Possible Impact on the Health Consequences of the Persian Gulf War, May 1994.

(36) Samantha Power: A Problem from Hell : America and the Age of Genocide. 2013. p.235 and passim

في عام 1987م، دخل الجيش الأمريكي المعركة علناً إلى جانب العراق ، بعد أن أرسل ريغان أسطولاً مكوناً من أربعين سفينة حربية إلى الخليج، بما في ذلك حاملة الطائرات الأمريكية الشهيرة U.S.S Enterprise. دمرت القوات البحرية الأمريكية منصات النفط الإيرانية وأغرقت السفن البحرية الإيرانية.

ردت إيران على هذه الهجمات بعمليات إنتقامية أثرت بشكل كبير على حركة ناقلات النفط الحاملة لمنتوج دول الخليج الأخرى كالكويت والإمارات، والتي تحالف حكامها مع العراق، كما إن البحرية الإيرانية ملأت أجزاءً من الخليج العربي بالغام مضادة للسفن. ولأن في ذلك تهديد كبير لمصالح الولايات المتحدة وأوروبا إذ أن النفط القادم من الخليج يشكل مورداً مهماً لهما، لذلك عرضت الولايات المتحدة على دول الخليج رفع العلم الأمريكي فوق سفنها دلالة على أنها تبخر تحت حماية البحرية الأمريكية، كما قامت في نفس الوقت بتدمير منصات النفط الإيرانية. وفي غضون ذلك،

تفاقت المشاكل العسكرية لإيران بسبب الحملة التي قادتها السعودية مع حلفاء العراق في الخليج لزيادة الإنتاج النفطي وبالتالي شل الإقتصاد الإيراني عن طريق خفض أسعار النفط⁽³⁷⁾.

كل هذه العوامل أجبرت النظام الإيراني في يوليو 1988م على تلبية حل مجلس الأمن المرقم 598م وإنهاء الحرب بين البلدين. هذا القرار أنهى نزيف الدم وأبقى لإيران جميع الأراضي التي كانت ضمن حدودها قبل بدء الحرب، ومن جانب آخر لم يصف العراق بالدولة المعتدية ولم يطالب بأي تعويضات لخسائر إيران.

على مدى ثماني سنوات، تسببت الحرب بخسائر بشرية هائلة، حيث قتل و جرح أكثر من مليون شخص. ووفقا لتقديرات متحفظة، بلغ عدد القتلى في العراق حوالي 105,000 قتيل، وأكثر من ضعف هذا العدد بالنسبة لإيران. وتشير تقديرات أخرى إلى أن الأرقام الإجمالية تصل إلى 450,000 إلى 750,000

(37) Ray Takeyh. -The Iran-Iraq War: A Reassessment.- The Middle East Journal, vol. 64, no. 3, 2010, pp. 374-375.

لإيران، ومن 150،000 إلى 340،000 للعراق⁽³⁸⁾.

أخيرا يجدر القول، بعيدا عن محاولة إختيار المخطئ والمصيب من سيناريو الحرب التي غالبا ما يختفي فيها الفارق بين هذه الأوصاف وتتشابه فيها المعاني من هذه الألفاظ، بأن في معرض وقائع هذا النزاع تثبت حقيقة واحدة وهي : أن كل ما جناه العراق من هذه الحرب هو أكثر من 100،000 عراقي قتل، بالإضافة إلى نشوة عجز العدو عن المطالبة بتعويض عن خسائره. لا متر أرض واحدة ولا بئر نפט صغيرة.

(38) Samantha Power: A Problem from Hell : America and the Age of Genocide. 2013. p. 553 n.64 .

من المحارب إلى المحارب

بعد ثماني سنوات من القتال مع إيران، كان لا يزال بإمكان العراق أن يتباهى بجيش قوي قوامه مليون شخص (من أصل ستة عشر مليون إنسان) إضافة إلى مئات الآلاف من المسلحين في الميليشيات المحلية. لكن الحرب أدخلت العراق أيضاً في ديون ضخمة. كان صدام قادر على الاحتفاظ بقدراته الحربية لأن الدول العربية المنتجة للنفط في الخليج (كالإمارات العربية المتحدة، المملكة العربية السعودية والكويت) قد أقرضوا حكومته مليارات الدولارات، السبب وراء ذلك هو لأنه لم يكن لأي منهم جيش قوي وبالتالي لم يكن أمامهم خيار سوى الإعتماد على العراق لحماية مرور نفطهم عبر الخليج في قبال التهديد الإيراني.

مع إنتهاء الحرب، توقع صدام أن يعرب الدائنون العرب عن إمتنانهم من خلال إعفاء العراق من سداد ما أقرضوه له. وعندما رفضوا فعل ذلك، ركز صدام غضبه على الكويت، متهماً قادتها بإنتاج نفط أكثر من الحصة المخصصة لها من قبل أوبك،

مما أدى إلى خفض أسعار النفط وإعاقة إعادة إعمار العراق، كما إتهمهم بسرقة نفط العراق عن طريق الحفر أفقياً من الأراضي الكويتية إلى حقل الرميلة العملاق في العراق.

كما إستخدم صدام شكواه المزعومة ضد الكويت لإحياء إدعاء قديم قدمه رؤساء عراقيون سابقون وهي : أن الكويت فصلت بشكل غير شرعي عن العراق من قبل الإستبداد الإمبريالي البريطاني ويجب أن تصبح مجددا جزءاً من العراق. فعندما أكد قاسم حق العراق في الكويت عام 1961م، أرسلت كل من بريطانيا وجامعة الدول العربية قوات عسكرية لإجباره على التراجع. الآن، في أغسطس 1990م، بعد أن ذهبت المفاوضات مع الكويت إلى اللامكان، تجرأ صدام على إعادة تأكيد هذا الإدعاء، فأرسل قوات ودبابات ومروحيات حطمت القوات الكويتية وإستولت على البلاد وأجبرت قادتها على النزوح. أعلن صدام أن العراق قد أعاد لنفسه ما كان بحق إحدى مقاطعاته، وأرسل حاكماً عراقياً - وهو ابن عمه - ليحكمها.

في أبريل عام 1990م، أكد وفد من الكونجرس
الزائر لصدام نية الولايات المتحدة في الإبقاء على
العلاقات الحسنة مع العراق. في أواخر يوليو من
نفس العام، وبينما كانت قواته تحتشد على الحدود مع
الكويت، إلتقى صدام بالسفيرة الأمريكية في العراق
-أبريل جلاسبي- التي أوصلت له تحيات الرئيس
جورج بوش الأب وأبلغته أن الولايات المتحدة ليس
لها رأي فيما يتعلق بالقضايا بين الأطراف العربية⁽³⁹⁾
، كما وأبدت رغبتها في توثيق العلاقات مع العراق.
لذلك كان صدام مقتنعاً بأن الولايات المتحدة ربما
ستدعن بسهولة لقضية إستيلائه على الكويت .

لكن الحقيقة كانت معاكسة لذلك تماماً، فقد كان
رد فعل معظم أعضاء المجتمع الدولي غضب عارم
لم يكن صدام ليتوقعه أبداً. أما قائد الجوقة فقد كان
صديقه من أسابيع قليلة فقط، الرئيس الأمريكي
بوش الاب، الذي أعلن للعالم أن عدوان صدام
-لن يستمر-. من أغسطس إلى ديسمبر 1990م،

(39) Peter Sluglett, -Iraq under Siege: Politics, Society and Economy 1990-2003,- in
From Desolation to Reconstruction: Iraq's Troubled Journey, ed. Mokhtar Lamani
and Bessma Momani (Wilfrid Laurier University Press, 2010), pp. 16-19.

إحتشدت قوة عسكرية هائلة للتحالف الدولي في منطقة الخليج العربي. تم تنسيق هذا الجهد بواسطة الولايات المتحدة التي كانت قد إنتعشت وقتها حديثاً إثر تفكك كيان عدوها اللدود -الإتحاد السوفيتي- عام 1989م، حدث جعل من الولايات المتحدة أكبر قوة عسكرية على ظهر الكوكب، إلى الحد الذي ألهم أحد أبرز الباحثين في العلاقات الدولية أن يصف الصعود الأمريكي على أنه -نهاية التاريخ- (40).

إستضافت المملكة العربية السعودية الحشود العسكرية لأنها الدولة التي تمتلك أكبر إحتياطي نفط في العالم -وبالتالي تشكل أكبر مصدر قلق إستراتيجي للولايات المتحدة-. لكنها أيضاً أرض مكة والمدينة، أكثر مدينتين مقدستين في الإسلام. الملك فهد، الحامي الرسمي للحرمين، سمح لمئات الآلاف من الجنود الأمريكيين والأوروبيين بالتجمع في الأرض التي يجلها المسلمون في جميع أنحاء العالم على أنها أقدم بقاع المعمورة. وقد أدى هذا

(40) Francis Fukuyama, The End of History and the Last Man (New York: Free Press, 1992).

التدنيس الملحوظ في وقت لاحق إلى تأجيج غضب بعض الفئات - بمن فيهم القاعدة وأسامة بن لادن - الذين نفذوا الهجمات الإرهابية ضد الولايات المتحدة في 11 سبتمبر 2001 م. بإصرار من الولايات المتحدة، لم تنضم إسرائيل إلى التحالف ضد العراق، الأمر الذي فتح الباب لمعظم الدول العربية الرائدة بالإنضمام، من بينهم السعودية والإمارات العربية المتحدة ودول الخليج العربي مثل عمان والبحرين. لعل أبرز من إنضم إلى هذا التحالف الضخم هما الدولتان العربيتان اللتان كانتا تاريخياً - مع العراق - منابع للحركة القومية : مصر وسوريا. إن عملية الإنضمام هذه وتداعياتها كانت بمثابة رصاصة الرحمة لحلم الحركة القومية العربية كمشروع سياسي قابل للتطبيق.

في أغسطس 1990 م، أصدر مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة قراراتين لإخضاع صدام. القرار 660 طالب قوات صدام بإخلاء الكويت. أما القرار 661 فقد إتضح شؤمه في السنوات اللاحقة من إصداره، لأنه فرض عقوبات إقتصادية صارمة منعت الدول

الأعضاء في الأمم المتحدة من إستيراد أي شيء من
المورد الذي يعد شريان الحياة لإقتصاد العراق
-النفط-. رفض صدام الإمتثال لقرار مجلس الأمن،
وهكذا أسدل الستار عن مرحلة تعرض فيها جرح
الحرب الذي لم يلتئم بعد، إلى ريح جافة من سنين
عجاف، تعثرها المعاناة وطقوس الإجحاف.

عاصفة الصحراء

في 15 كانون الثاني / يناير 1991م، شنت قوات التحالف حملة شرسة من القصف الجوي على بغداد وأماكن أخرى في جميع أنحاء العراق. كان الإسم الذي تم إختياره للهجوم - عاصفة الصحراء - ضخماً، وحتى ميلودرامياً، لكنه وصف تأثيره بإيجاز قاسي. التصورات العراقية لأضرارها تراءت في تشبيه المعلقين العراقيين لهجوم الرئيس بوش بالمجيء الثاني لهولاكو، خان المغول الذي دمر جيشه الكثير من بغداد عام 1258م، فبحلول الوقت الذي إنتهت فيه عملية عاصفة الصحراء، كانت البنية التحتية للعراق قد خربت بالكامل.

رد صدام بهجمات صاروخية على قواعد التحالف في السعودية، وتمكن مؤقتاً وبشكل ناجح من إحتلال مدينة الخفجي السعودية. وعلى أمل أن تنسحب القوات العربية المعارضة له، قام بمحاولة فاشلة لإغراء إسرائيل إلى الحرب بإطلاق الصواريخ عليها. أمر صدام قواته أيضاً بحرق المئات من آبار النفط الكويتية، بهدف الحد من الضربات الجوية عن طريق

تقليل مجال رؤية الطيارين. إحترق العديد منها دون حسيب ولا رقيب لأشهر بعد إنتهاء الحرب، ما إستهلك خمسة مليون برميل من النفط محدثا سحابة هائلة من الدخان الأسود كان بالإمكان رؤيتها بسهولة من الأقمار الصناعية في الفضاء، كما وألحقت أضرارا بيئية على الروافد العليا للخليج. في 23 شباط / فبراير، عبرت القوات البرية للتحالف الحدود إلى الكويت والعراق. في غضون خمسة أيام طردوا القوات العراقية بالكامل من الكويت وبحلول الوقت الذي أعلن فيه بوش وقف إطلاق النار في 28 فبراير، كانت عاصفة الصحراء قد أبادت أكثر من ثلاثة آلاف مدني عراقي - بما في ذلك أكثر من مئتين تم طمسهم في ملجأ للقنابل ببغداد - إضافة إلى مقتل عشرين ألف جندي عراقي، كثير منهم أثناء الإنسحاب من الكويت على ما أصبح يعرف بإسم - طريق الموت -.

خوفا من التكاليف والخسائر المحتملة، إضافة إلى العواقب الناجمة عن زعزعة إستقرار الشرق الأوسط بشكل أكبر، إتخذ بوش وحلفاؤه قرارا مصيريا مهد

الطريق لحدث مدمر على العراق وشعبه عقب نهاية العملية والذي لا يزال عواقبه مستمرة إلى يومنا هذا : لقد قرروا عدم ملاحقة القوات العراقية حتى أبواب بغداد، وعدم إبعاد صدام حسين ونظام البعث عن السلطة.

قبل أسبوع واحد من بدء الغزو البري، حث بوش الأب الشعب العراقي والجيش عبر إذاعة صوت أمريكا بالتالي : -عليكم أخذ زمام الأمور بأيديكم، عليكم إجبار صدام حسين الدكتاتور على التنحي-. لقد أخذ الأكراد الذين طالت معاناتهم في الشمال والشيعة العرب في مدن الجنوب كلام بوش على محمل الجد، حيث إعتقدوا أن هذا التحريض كان وعدا ضمينا بالدعم العسكري الأمريكي إذا إنتفضوا ضد صدام. لقد إنتفضوا بالفعل، وفي هذه العملية مزقوا الإحساس بالهوية العراقية التي كانت، قبل ثلاث سنوات فقط، قد وصلت إلى ذروتها.

على الرغم من أن الهدنة التي أنهت القتال العسكري فرضت بعض القيود على الجيش العراقي، إلا أن المفاوضون الأمريكيون سمحوا لجيش صدام

بالإحتفاظ بطائرات الهليكوبتر الحربية. أمر صدام تلك القوات التي ظلت موالية له بإطلاق العنان للطائرات الحربية وسحق الإنتفاضة التي عرفت بالإنتفاضة الشعبانية. رفضت القوات الأمريكية مناشدات المنتفضين للمساعدة على رغم قربهم من ساحة الجريمة، وفوقها أرسلوا للمنتفضين ردا عبر الراديو محتجين بأنهم شيعة، وهذا يجب أن يعني أنهم يتعاونون مع إيران، وبالتالي فإن القوات الأمريكية لن تساعدهم⁽⁴¹⁾.

في غضون ذلك، كان صدام الذي أعاد تأكيد سيطرته بوحشية ينتقم من الشيعة والأكراد، كما كانت طائراته الحربية ودباباته ومدفعااته تقصف مدن الجنوب، بما في ذلك مدينتي النجف و كربلاء المقدستين، مما أسفر عن مقتل الآلاف في منازلهم أو في الشوارع. قامت قواته الأمنية بإعتقال وتعذيب وإعدام آلاف آخرين، وإلقاء جثثهم المشوهة في مقابر جماعية لا يزال يتم اكتشافها بعد عقود. توغلت دباباته في المدن الشمالية واستعادتها أيضاً، على الرغم

(41) Patrick Cockburn. Muqtada Al-Sadr and the Fall of Iraq. ed, Faber and Faber, 2008. p.69

من أن البيشمرجة الكردية كانت قادرة على الإحتفاظ بموطئ قدم صغير في الشمال، إلا أنه بعد شهر من إندلاع التمردات، كان قد تم تحطيمهم من خلال الإعدامات، هدم المدن وعمليات الترحيل الجماعية.

هرب ما يصل إلى مليوني عراقي، ثلاثة أرباعهم من الأكراد، إلى الريف. أما في الجنوب، حيث الأهوار القديمة التي كانت حاضنة لنشوء الحضارة السومرية، ومأوى الكلدان الذين تمردوا ضد ملوك نينوى الآشوريين، وحيث أقام العبيد الزوج من الأفارقة في إنتفاضتهم ضد العباسيين في بغداد، هناك بنى صدام قنوات لتحويل مسار مياهها ومنع المنتفضين من الإختباء فيها. ما أدى الى تحويلها لصحراء قاحلة وجعلت من عرب الأهوار الذين لم تقتلهم قواته لاجئين ومشردين. لم يكن الشيعة العرب وحدهم من أُجبروا على التشرّد، ولكن أيضاً الكثير من سكان العراق من المندائيين، وهي طائفة عمرها ألفي سنة، ترجع جذورها إلى عصر المسيحيين الأوائل.

ويلات العقوبات

كل هذه الأحداث السابقة جعلت من العراق في نظر المجتمع الدولي دولة خطيرة ومقلقة سواءً من حيث أواصرها الاجتماعية أو في قوتها الخارجية، ولكن ما أقلق أمريكا أكثر هو أن إضعافهم للعراق أعطى الفرصة لإيران حتى تبرز مرة أخرى كقوة رئيسية في الخليج، لذا إعتقدت الولايات المتحدة أن عليها التعامل مع تهديد مزدوج لمصالحها الإستراتيجية في الخليج (أي وصولها إلى النفط) ولحليفها الرئيسي في الشرق الأوسط (إسرائيل)، الذي أطلق صدام ضدها صواريخ بعيدة المدى خلال الحرب. تبنى الرئيس الأمريكي الجديد، بيل كلينتون، سياسة جديدة لـ -الإحتواء المزدوج- للعراق وإيران. لفرض هذه السياسة، وضعت الولايات المتحدة قوات عسكرية في قواعد الكويت ودول الخليج الأخرى - بما في ذلك المملكة العربية السعودية -.

إشترطت سياسة الإحتواء المزدوج مراقبة قدرات العراق ما دام صدام في السلطة. حققت الولايات المتحدة وحلفاؤها ذلك من خلال مجموعة من

التكتيكات، من ضمنها إطلاق الدوريات الجوية في مناطق حظر الطيران التي أقامتها الولايات المتحدة فوق المجال الجوي العراقي بعد الحرب مباشرة وشن هجمات جوية متقطعة - لإضعاف - دفاعات العراق. بين عامي 1992 - 2000 م، بلغ متوسط الطلعات الحربية الأمريكية ثمانية آلاف طلعة جوية سنوياً فوق مناطق حظر الطيران. في عام 1998 م، أقر الكونجرس الأمريكي أيضاً قانون تحرير العراق، الذي جعل من إزالة نظام صدام السياسة الرسمية للحكومة الأمريكية.

لكن إلى حد بعيد، كان التكتيك الأكثر تدميراً هو استمرار التطبيق الصارم للعقوبات الاقتصادية التي كان مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة قد سمح بها في صيف عام 1990 م وما بعده. فإلى جانب منع الدول الأعضاء في الأمم المتحدة من شراء وإستيراد النفط العراقي، فإن العقوبات منعت العراق من إستيراد أي مواد - حسب حكم لجنة مجلس الأمن المكلفة بإدارة تنفيذ العقوبات (بعد القرار 661) - يمكن إستخدامها لتصنيع أسلحة نووية أو كيميائية

أو بيولوجية. كما طلبت الأمم المتحدة من العراق الإفصاح عن معلومات حول الأسلحة الكيماوية والبيولوجية التي ما زالت بحوزته وأن يوافق على الخضوع لزيارات متكررة من قبل فرق المفتشين للتأكد من إنعدام تلك الأسلحة أو التحقق من تدميرها. وفقط بعدما يمثل صدام لذلك ويتم تأكيد عدم إمتلاك العراق لأسلحة الدمار الشامل، عندها ترفع العقوبات المفروضة على العراق. لكن ليس من المستغرب أن حكومة صدام لم ترحب بعمليات التفتيش المتطفلة هذه، خاصة عندما إكتشف أن الولايات المتحدة قد زرعت أعضاء من وكالة المخابرات المركزية (C.I.A) في فرق التفتيش. كان صدام قد قام في الواقع وبعد فترة وجيزة من إنتهاء الحرب بتدمير مخزون البلد من الأسلحة الكيماوية، وكذلك قام بتفكيك برنامجه الاولي للأسلحة النووية. ولكن، خوفاً من أن يستغل قادة إيران هذا الأمر لينتقموا من دولة العراق المضعفة، فإنه إختار عدم نشر الخبر. إن صمت صدام هذا كان له عواقب كارثية على العراق بعد أحد عشر عاماً.

ومما زاد من تفاقم التدهور الإقتصادي الذي أطلقتته الحرب مع إيران، هو أن القصف الجوي المكثف للمدن العراقية خلال عملية عاصفة الصحراء قد دمرت البنية التحتية للبلد في غضون أسابيع، مما أدى إلى تحويل واحدة من أكثر دول العالم العربي إزدهارًا إلى دولة من دول العالم الثالث. أما بعدها وعلى الرغم من إنتهاء الحرب، فإن عقوبات الأمم المتحدة ضاعفت من هذا الدمار، وشلّت الإقتصاد العراقي - إذ إنخفض الإنتاج النفطي بأكثر من خمسة وعشرين بالمائة لأن العراق حرم من المعدات الضرورية لمواكبة الإنتاج - كما دمر ما كان قبل سنوات قليلة من بين أفضل البرامج التعليمية وأنظمة الرعاية الطبية في الشرق الأوسط. إضافة الى ذلك فإن اللجنة 661 منعت العراق من إستيراد أي مواد قد تستخدم في تصنيع أسلحة كيمياوية أو بيولوجية - من بينها المفاتيح الكهربائية، وأنابيب المياه، والكلور. ونظرًا لذلك فإن أنظمة المياه النظيفة والصرف الصحي وتوليد الطاقة والأنظمة الطبية في العراق أصبحت متداعية بشكل متزايد، ما أدى إلى

حالات مرضية وسوء تغذية أودت بحياة الآلاف من العراقيين، إذ راح ضحيته وفقاً لبعض التقديرات حياة 880,000 طفل عراقي دون سن الخامسة. كما أشارت دراسة تقييمة نشرت عام 1999م بأن عدد الضحايا جراء العقوبات الدولية على العراق، فاق عدد جميع المقتولين بواسطة أسلحة الدمار الشامل عبر التاريخ كله⁽⁴²⁾. وعندما سئلت وزيرة الخارجية الأمريكية وقتها ماديلين البرايت - في برنامج 60 دقيقة علي محطة سي.بي.اس - فيما إذا كانت العقوبات فعلاً إستحقت مقتل ما يزيد عن نصف مليون طفل عراقي، أجابت : نعتقد إن الثمن كان يستحق ذلك !! .

حتى مع تحطم حياة الآلاف من العراقيين بسبب عقوبات الأمم المتحدة، إلا أن صدام وجد طريقاً لتقويض تلك العقوبات والحفاظ على مصالحه ومصالح حلقة الداخلية من الأنصار وأفراد العائلة، إذ جند من داخل العراق وخارجه أي شخص يمكن أن يساعد نظامه على البقاء، وأوكل إليهم تنفيذ

(42) John Mueller and Karl Mueller, -Sanctions of Mass Destruction,- Foreign Affairs 78 (1999), pp. 43-53 .

مخططات لتهرب النفط العراقي إلى تركيا وإيران. حتى قال عنه أحد الباحثين - كان صدام ألمع ما يكون في إستعمال أسلوب الثواب والعقاب لضمان بقاءه - (43).

وهكذا، عندما تم تنصيب بوش الابن، نجل جورج اتش دبليو بوش، رئيسًا للولايات المتحدة في يناير 2001م، كان صدام حسين الذي بدا صامدا لا يزال يحكم العراق ولا يزال عدو الولايات المتحدة وإسرائيل المعلن عن نفسه يمتلك جيشًا كبيرًا، وإن كان ضعيفًا. كما كان أعداؤه يخشون إمتلاكه ترسانات من أسلحة الدمار الشامل الكيميائية والبيولوجية. على الرغم من أن الحرب والعقوبات قد أضرت بإنتاج النفط العراقي، إلا أن صدام كان لا يزال يحتفظ بإحتياطيات هائلة من النفط الخام والغاز الطبيعي - موارد إستراتيجية مهمة لدول صناعية هيمنت عليها الولايات المتحدة، لكنها تضمنت أيضًا بعض اللاعبين الجدد مثل الصين والهند، الذين تطلب تطورهم الوصول إلى مصادر الطاقة هذه.

(43) John Robertson. Iraq : A History. 2015. Oneworld Publications. pp.579-580

مثل الخلافة العباسية في منتصف القرن الثالث عشر، كان عراق صدام ضعيفاً لكن يزينه زخارف من ظلال عزة الماضي، ما جعله بمثابة جائزة جاهزة للقطف في نظر المحتل. ولكن في سياق أدبيات القرن الحادي والعشرين، كان من الواجب أولاً إيجاد ذريعة مقنعة للإحتلال.

الإحتلال الأنجلو-أميريكي

في صباح يوم 11 أيلول / سبتمبر 2001م، إختطف أربع مجاميع من الشبان المنتمين إلى تنظيم القاعدة أربع طائرات تجارية، كانت جميعها محملة بالركاب المطمئنين، ونجحوا في إقتياد وتفجير ثلاثة منها بإثنين من أشهر الرموز المعمارية للقوة العسكرية والتجارية في أمريكا : البرجين التوأمين لمركز التجارة العالمي في نيويورك، ومبنى البنتاغون في العاصمة واشنطن، الذي تعرض لأضرار جسيمة. قتلت هذه الهجمة في المجمل ما يقرب من ثلاثة آلاف شخص، معظمهم من الأمريكيين. ساد الذهول والرعب والغضب أمريكا والعالم، حتى إن إحدى الصحف اليومية الفرنسية الرائدة صرحت في اليوم التالي قائلة -كلنا أمريكيون-. كان الأمريكيون عازمين على الإنتقام -ولا أحد أكثر من الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش، الذي كان قد أمضى عاما مزريا في منصبه -. تألف قادة القاعدة من سعودى (أسامة بن لادن) و مصري (أيمن الظواهري). وكان معظم منفذي الهجوم سعوديين وباكستانيين. لعدة سنوات قبل

الهجمات، إستخدم تنظيم القاعدة أفغانستان كقاعدة للتدريب والتخطيط للعمليات، إذ إستضافهم هناك نظام طالبان الإسلامي، الذي وصل إلى السلطة بعدما طرد الإتحاد السوفيتي، الذي إحتل البلاد عام 1979م، من قبل مقاتلي المقاومة الأفغانية الذين قدمت لهم السعودية وباكستان والولايات المتحدة الأموال والأسلحة. بالتالي، فإن أفغانستان كانت على رأس لائحة الرد الأمريكي في محاولة البحث عن قيادة القاعدة وتدميرها وإزاحة طالبان من السلطة.

أصبح معلومًا بعد فترة وجيزة من الهجمات -كما أكد تقرير للحكومة الأمريكية نُشر في يوليو 2004- بأنه لم يكن من بين الذين خططوا أو نفذوا الهجمات أي شخص عراقي الجنسية. ولم يوثق ذلك التقرير أي دليل على وجود علاقة مهمة بين القاعدة ونظام صدام حسين⁽⁴⁴⁾. وبالرغم من ذلك، وحتى قبل أن يهدأ الغبار من على أنقاض مركز التجارة العالمي، بدأ مسؤولو إدارة بوش في إستكشاف سبل

(44) National Commission on Terrorist Attacks upon the United States, The 9/11 Commission Report: Final Report of the National Commission on Terrorist Attacks upon the United States (New York: W. W. Norton, 2004).

لإلقاء اللوم على صدام، ومن ثم استخدام ذلك كنقطة إنطلاق للهجوم عليه. أما الأسباب الحقيقية لقيامهم بذلك فلا تزال محور جدل إلى يومنا هذا - ومن المرجح أن تبقى كذلك لسنوات قادمة -، إلا أن من بين أهم الأسباب هو بالتأكيد نفس الاعتبار الذي أثار المخططين البريطانيين مثل ونستون تشرشل وغيره من غزاة بلاد ما بين النهرين منذ فجر التاريخ: السيطرة على الثروة الطبيعية للبلاد. لاحظ أحد المحللين المرموقين في عام 2002م أن نفط العراق، ولعدة أسباب، كان موردا جذابا بشكل خاص، أولا لأن إحتياطياتها النفطية هي الثاني أكبر في أوبك O.P.E.C (بعد المملكة العربية السعودية). ثانيا، لأن نفط العراق ذو جودة عالية وسهل الإستخراج (خاصة في الحقول الجنوبية) ما جعل تكاليف الإنتاج منخفضة نسبياً، كما إن قربه من الممرات البحرية الحديثة سهل عملية التصدير بعد الإستخراج. هذه مزايا واضحة عندما يقارنها المرء مع سلبات الحقول التي تم إكتشافها بعد ذلك في ألاسكا وبحر الشمال وحوض قزوين والمكسيك

وفنزويلا، كما وتوضح أهمية هذه الاعتبارات بشكل خاص عندما يفكر المرء في التسرب النفطي الكارثي من إحدى عمليات شركة بريتيش بتروليوم في خليج المكسيك عام 2010م. علاوة على ذلك، وبصفتها دولة إعتمدت على نفط المملكة العربية السعودية، لكن تعرضت في 11 سبتمبر للهجوم من قبل مجموعة يقودها سعودي، ربما أرادت الولايات المتحدة الأمريكية تنويع مصادرها من نفط الشرق الأوسط والخليج. كما أشار بول روجرز من جامعة برادفورد ومجموعة أكسفورد للأبحاث، -يمكن إعتبار ذلك، على أنه الرابط الحقيقي بين القاعدة ومسألة العراق-. إمكانيات إستغلال النفط العراقي آثار طمع الشركات الأمريكية وبدوره سارع من تنفيذ قرار الإحتلال، حتى إن أحد المدراء التنفيذيين لشركات البترول قال - بالنسبة لنا، التواجد في العراق يشبه تواجد الطفل في محل اف.اي.او شوارتز (متجر ألعاب معروف في نيويورك)-. وقد ظهرت إعتبارات إستحصال النفط العراقي بالفعل في خطط مسؤولي إدارة بوش، فعندما سُئل وكيل وزارة الدفاع

الأمريكية بول وولفويتز عن علة قرار الولايات المتحدة بمهاجمة العراق بدلاً من كوريا الشمالية (التي كان معروفًا عنها حينها أنها طورت سلاحًا نوويًا). أجاب: -دعونا ننظر إلى الأمر ببساطة. الاختلاف الأكثر أهمية بين كوريا الشمالية والعراق، هو أنه -إقتصاديًا- لم يكن لدينا خيار في العراق، البلد يسبح على بحر من النفط -⁽⁴⁵⁾.

مهما كانت الدوافع الفعلية، ففي يناير 2002م، وبعد أربعة أشهر فقط من هجمات 11 سبتمبر، استخدم الرئيس بوش خطاب -حالة الإتحاد State of Union - السنوي لوصف العراق - إلى جانب إيران وكوريا الشمالية - على أنه عضو في -محور الشر- الذي يهدد الأمن العالمي. بعد ذلك، وإستنادًا على إفتراضات خاطئة مبنية على معلومات إستخباراتية ضعيفة أو حتى زائفة، وبمساعدة وسائل الإعلام المطبوعة والألكترونية، أقنع بوش ومسؤولوه، جنبًا إلى جنب مع رئيس الوزراء البريطاني توني بلير، الملايين من المواطنين والمنتخبين بالتالي :

(45) Zizek, Slavoj. Iraq: The Borrowed Kettle (Wo Es War Series). First Edition, Verso, 2005. p. 5.

(1) أن صدام، زعيم نظام البعث العلماني، كان يتواطأ مع إرهابيي القاعدة الإسلاميين، و (2) أنه يخزن -أسلحة دمار شامل- كيميائية وبيولوجية ونووية قد يلجأ إلى إستخدامها ضد الولايات المتحدة والدول الأوروبية أو يقوم بتسليمها للقاعدة (مع أن العراق كان وقتها خالياً تماماً من أي سلاح كيميائي أو بيولوجي والإدارة الأميركية نفسها اعترفت بذلك لاحقاً).

على الرغم من أن صدام لم يلعب أي دور في هجمات الحادي عشر من سبتمبر، إلا أن هذا الإدعاء كان له تأثير كارثي على العراق، حيث أصبح الأساس الذي قامت عليه الولايات المتحدة وحلفاؤها في مارس 2003 م بشن عملية عسكرية كانت -صدمة ورعب- (على حد تعبير الجيش الأمريكي)، إذ سرعان ما هزموا القوات العراقية المستضعفة، أسقطوا صدام، ومن ثم أنهوا نظامه. هرب صدام، لكن إعتقلته القوات الأمريكية بعدها وبقي في السجن إلى أن أُعدم في نهاية عام 2006 م. بعدها تم إستبدال النظام البعثي مؤقتاً بسلطة التحالف، وهي حكومة

إحتلال يرأسها دبلوماسي / نائب رئيس أمريكي (إل. بول جيري برimmer) ويعمل فيها المسؤولون الأمريكيون الذين إتصفوا بنفس الجهل الثقافي الذي كان قد أبتلي به مدراء الإنتداب البريطاني الذين قدموا إلى العراق بعد الحرب العالمية الأولى. على عكس البريطانيين، لم يكن للأمريكيين خبرة سابقة في حكم شعوب الشرق الأوسط، بل في كثير من الأحيان كانوا يجهلون تأريخ وثقافة العراق تمامًا، إذ تم تجنيدهم على أساس الولاء الحزبي السياسي بدلاً من الخبرة الفعالة.

التعليقات التالية هي من أغسطس 2010م لأحد كبار القادة الأمريكيين أثناء القتال، الجنرال ريموند أوديرنو، كما نقل عنها الصحفي أنتوني شاديد، يفصح بوضوح عن مدى إستعداد الجيش الأمريكي عند دخول العراق :

- لقد كنا جميعًا ساذجين جدًا بشأن حقيقة العراق... لقد كنا ساذجين بشأن المشاكل في العراق. لا أعتقد أننا فهمنا ما أسميه الدمار المجتمعي الذي كان قد حدث فيها

- مستشهداً بالحرب الإيرانية العراقية،
وحرب الخليج الفارسي، والعقوبات
الدولية من عام 1990 - 2003م التي
قضت على الطبقة الوسطى - ثم قال :
-وبعدها هاجمنا نحن للإطاحة بالحكومة-.

وينطبق الشيء نفسه على الإنقسامات العرقية
والطائفية في البلاد، حيث قال : -نحن فقط لم نفهم
ذلك-.

ولدى سؤاله عما إذا كانت الولايات المتحدة قد
زادت من حدة الإنقسامات في البلاد، قال الجنرال
أوديرنو: -لا أعرف-.

-هناك كل هذه القضايا التي لم نفهمها والتي
كان علينا أن نعمل على حلها- ثم قال : -
لكن ربما تسببنا في تفاقم الأمر؟ ربما - (46).

(46) Anthony Shadid, -U.S. Commander Fears Political Stalemate in Iraq,- New York Times, 29 August 2010.

أما بعد...

كل الأحداث التي طرأت على العراق بعد عام 2003م لا تعد تاريخاً بالنسبة لنا، بل إن أغلب العراقيين هم شهود أحياء على أحداثها، فمن الحرب الطائفية وعمليات القتل على الهوية التي اندلعت بعد تفجير العسكريين عام 2006م في بغداد وغيرها من المدن، إلى مجيء داعش وإحتلال المحافظات العراقية من قبل فئة دانت بدين العصور المظلمة، وما بين هذا وذاك من سنين سادها إختطافات أبعدت الأبدان، وتفجيرات أفنت الأرواح، فأمسى الناس لا يطمئنون في ديارهم ولا يأمنون في ترحالهم. كل ذلك تحت غطاء من الديمقراطية التي يبدو أن الهدف منها هو إرتداء ثياب الدولة التي تحكمنا أكثر مما هو لمحاولة إضفاء الحرية الفعلية وتحقيق الإستقلال السياسي، إذ بلغ عدد القتلى جراء عمليات العنف بين عامي 2003-2021م ما يعادل 288,000 إنسان⁽⁴⁷⁾، رقم مروّع خصوصاً إذا أخذنا

(47) The public record of violent deaths following the 2003 invasion of Iraq . [https://](https://www.iraqbodycount.org)

www.iraqbodycount.org

بنظر الإعتبار أنه يفوق على الأغلب عدد الضحايا طوال الحرب العراقية - الإيرانية . وليس المقصود هنا أن الديموقراطية بذاتها هي أيديولوجية غير صالحة للعراق، وإنما المقصود هو أن حالها كحال كل الأفكار والأنظمة في التاريخ، تؤدي إلى نتائج عكسية ومهلكة في حال تم تطبيقها بشكل خاطئ ولأسباب وأهداف خاطئة، وهذا ما جرى على الديموقراطية في العراق.

رغم ذلك قد يترأى للقارئ بعد الإطلاع على كل هذه الأحداث التي يغلب على ملامحها إما طابع التسلط أو واقع الصراع، وبعد دراسة تأريخ العراق من بداية الحضارة وإلى يومنا هذا، بأن بلاد الرافدين كانت وستبقى دوما مشحونة بالصراع وموبوءة بالآزمات، ما دام للتأريخ بقية وفي العراق إنسيا، ومع أن كل العواطف والتجارب تدفعنا إلى الإيمان بذلك، إلا أن الحقيقة هي ببساطة - أن هذا ليس صحيحا - . والسبب هو (كما يجب أن يكون قد إتضح من البحوث السابقة) أن جميع الأحداث السياسية والاجتماعية لدولة معينة مبنية بشكل رئيسي على

المعطيات الاقتصادية التي يفرزها الواقع الجغرافي لذلك البلد، فعلى سبيل المثال : أرادت بريطانيا أن تترك العراق بعد إطاحتها بالدولة العثمانية مطلع القرن العشرين، وذلك لأن المنتج الزراعي للعراق لم يكن كافياً لتغطية تكاليف إبقاء السيطرة عليه في عصر كالعصر الصناعي، ولولا أن تبين لاحقاً أن بلاد الرافدين غنية بالنفط كغناها بالماء والتربة، لكانت بريطانيا تركت العراق وشأنه، كما إتضح لنا من نصيحة ديفيد لويد لتشرشل (المنصوص آنفاً) .

وإذا علمنا أن النفط بدأ يفقد مركزه كعصب الاقتصاد وكصانع للسياسة

بنفس الطريقة التي فقد فيها المنتج الزراعي في العصر الصناعي دوره كمحرك للإقتصاد وكمحور للسياسة، بعد أن كان هو الاعتبار الأول والأخير في الحسابات السياسية والاقتصادية من العصر السومري وإلى العهد العثماني، فإن هذا يضعنا أمام مرحلة إنتقالية تاريخية (وفريدة حقاً) لن تبقى فيها لأي قوى خارجية الرغبة بأن تتدخل في شأن العراق أو أن تنخرط في حساباته السياسية، مرحلة يمكن

للعراق إما أن يستفيد منها ليصل في العقود القليلة القادمة إلى مصاف الدول المتقدمة ويصبح دخل أفراده مقاربة لتلك التي في قطر ولوكسمبورج، أو أن يهدر هذه الفرصة ليبقى في فقر وتخلف وضياع قد لا يفوق منه أبداً، ورغم أن التنبؤ الجازم لزمان وزخم حدوث هذا التغير أو الانتقال ينطوي على كثير من المتغيرات التي لا يسع البحث فيها ضمن هذا المؤلف، إلا أن النتيجة النهائية (أي التغير الإقتصادي) قادم لا محالة. لذا سوف نتطرق الآن إلى توضيح طبيعة هذه المرحلة مع الفرص والتحديات التي من الممكن أن تقدمها، إضافة إلى مقترح عن الأيدولوجيا الأفضل والسياسة الأمثل لإدارة العراق على ضوء كل الأحداث التي درسناها وتطرقنا إليها من بداية الحضارة وإلى يومنا هذا، لكن قبل ذلك علينا الإلتفات لبعض المعطيات الضرورية لفهم تغير الإقتصاد النفطي وتداعيات ذلك.

الوضع الحالي، فرص وتحديات

بغض النظر عن الوضع السياسي والجغرافي للعراق، تبقى الحقيقة أنه إذا أراد الشعب العراقي أن يعيد بناء الاقتصاد وأن يستعيد المستوى المعيشي الذي تم تحقيقه في السبعينيات، فإن هذا التعافي يجب أن يُؤسس على أكتاف ما إعتد عليه حكام العراق منذ أيام السومريين : ثروته الطبيعية. فمنذ عهد كلكامش وإلى الخلافة العباسية في بغداد، تم إكتساب تلك الثروة وإنتزاعها بصعوبة من تربة السهول الرسوبية الغنية التي، عند ريها وزراعتها بشكل صحيح، أنتجت محاصيل ضخمة من الحبوب التي مكنت قيام مدن وممالك وإمبراطوريات حضارة بلاد الرافدين العظيمة. اليوم يواجه العراقيون مفارقة رهيبة : فالدولة التي كانت تشكل سلة الخبز لعالم ما قبل الحداثة، وصلت اليوم إلى مرحلة تستورد فيها أكثر طعامه من خارج القطر. فأكثر من ثلاثين عام من الحرب والعقوبات والجفاف المستمر وبناء السدود من قبل الجارتين سوريا وتركيا على مجاري نهري دجلة والفرات، قلل من تدفق المياه عبر

هذين النهرين الواهبين للحياة في العراق، الأمر الذي تسبب في إنهيار الأراضي الزراعية وهجران القرى الريفية. علاوة على ذلك فإن الآثار المتوقعة للإحتباس الحراري تهدد بسلب المزيد من الأراضي الزراعية في العراق، فمع إرتفاع منسوب الخليج العربي تنتشر المياه المالحة على طول نهري دجلة والفرات لتفسد تربة السهل الرسوبي .

في مفارقة صارخة أخرى، نرى أن المزارعين العراقيين أُجبروا على التخلي عن حقول الحبوب ومزارع التمور - التي كانت محرك الاقتصاد لعصر ما قبل الصناعة - بسبب ضرورات المحرك الحديث: إنتاج النفط. إذ كان حلم إستغلال النفط العراقي هو الذي جذب الأوروبيين إلى العراق بعد الحرب العالمية الأولى، كما كان إنتاج النفط المتزايد والإرتفاع الحاد في أسعار النفط هما اللذان مكّنا صدام من بناء العراق إلى قوة إقليمية بمستوى معيشة الدول المتقدمة، وأخيرا فإن واردات النفط والأرباح الناتجة عنها هي التي حفزت الولايات المتحدة على غزو العراق وإزاحة صدام حسين في عام 2003 م. بنفس

هذه الصورة يمكن للعائدات المستقبلية من بيع النفط نظرياً أن تجلب فجراً جديداً وعصراً مجيداً على العراق والعراقيين، لكن هذا لا يمكن أن يحدث إلا إذا أنهينا الإنقسامات السياسية والطائفية والعرقية في العراق بصورة كاملة وإلى الأبد، وتمكنا بطريقة ما من كسب النضال الأبدي ضد العنف المجتمعي. إن احتمالات زيادة عائدات النفط تصعبها أيضاً حقيقة أن البنية التحتية لإنتاج النفط في العراق - أي الآبار ومنشآت الضخ وخطوط الأنابيب والموانئ والقدرة التصديرية العامة - تعرضت لأضرار بالغة بعد سنوات عديدة من الحرب والعقوبات. كما إن من المستبعد قيام المستثمرين الخارجيين بضخ رؤوس أموال جديدة إلى العراق إذا لم يصل الوضع الأمني فيه إلى مستوى معتبر من الاستقرار. ومع ذلك، فإن مثل هذا الاستثمار يمكن أن يحقق مكاسب ضخمة. كما أشرنا، فإن جيولوجيا حقول النفط العراقية تجعل من السهولة بمكان إستخراج النفط منها، كما تقع حقوله الجنوبية بالقرب من ميناء رئيسي على الخليج العربي في أم قصر. تبلغ إحتياطيات العراق المؤكدة

من النفط 150 مليار برميل (البالغة قيمتها حوالي 10 تريليونات دولار أمريكي، أي ضعف ميزانية العراق الحالية بـ 110 مرات)، ما يجعلها خامس أكبر إحتياطي في العالم، والثاني في أوبك O.P.E.C، بعد المملكة العربية السعودية فقط. علاوة على ذلك، فإن الدراسات الميدانية تشير على أن جزءا بسيطا فقط من الحقول المعروفة في العراق هي قيد التطوير، وقد يكون العراق أحد الأماكن القليلة في العالم حيث لم يتم إستغلال أكثر الموارد الهيدروكاربونية حتى اليوم، إذ يُعتقد أن الحقول غير المطورة تحتوي على عدة مليارات من براميل النفط الخام. ومن الجدير بالذكر أيضا أن العراق لديه وفرة من مصادر طاقة أخرى مربحة : وهو الغاز الطبيعي، مع إحتياطيات مؤكدة تبلغ 132 تريليون متر مكعب، ما يجعله ثاني عشر أكبر إحتياطي في العالم، لكن مثل النفط، يعاني العراق من تخلف شديد في إستغلال الغاز الطبيعي، إذ يتم سنويا إشعال حوالي ستين بالمائة (632 مليار قدم مكعب) من المنتج الحالي من الغاز الطبيعي هباءا في الجو، ما يجعله ثاني أكثر دولة هادرة للغاز

في العالم⁽⁴⁸⁾. وبعبارة أخرى فإن العراق يهدر سنويا ما يزيد قدره على 4.259 مليار دولار من الغاز الطبيعي بإحراقه في الهواء ثم يلجأ إلى شراء حوالي نصف هذا المقدار (حاجته السنوية) من دول أخرى كإيران وغيرها.

بعد ذكر مشاكل العراق في إستغلال ثرواته الطبيعية، يجب أن نتطرق الآن إلى الحقيقة الأكثر أهمية من المنظور العالمي، وهي أن دور النفط بذاته كمحور للإقتصاد العالمي وكمصدر رئيسي للطاقة سينتهي قريبا وذلك : (1) لأن النفط الميسر للإستخراج بدأ حرقا بالإنهاء والنفاذ من القشرة الأرضية، فبالرغم من غالب ما نتحلى به من غفلة بخصوص هذه الحقيقة، إلا أنه وبحسب التقرير الإحصائي لشركة النفط البريطانية (bp) عام 2021م، فإن الإحتياطي العالمي البالغ 244.4 مليار طن سينتهي بغضون 30-53 سنة بمستوى الإنتاج الحالي، وفي بعض الدول قبل الأخرى، كأمريكا التي تبقى من إحتياطها النفطي ما يكفي للسنوات الـ 4

(48) U.S Energy Administration Iraq Report , updated 24 February 2021 . <https://www.eia.gov/international/analysis/country/IRQ>

القادمة فقط ، وروسيا التي لديها مجرد 10 سنوات (علماً أن هاتين الدولتين تنتجان اليوم 30٪ من نفط الكوكب) ⁽⁴⁹⁾ . وبالرغم من المخزون الهائل لدول كنفزويلا، السعودية، إيران والعراق فإن إحتياطاتها الضخمة ستبدأ أيضاً بالنفاد بعد منتصف القرن إذا توجب عليها أن تعوض عن نسب إنتاج الدول الكبرى كالولايات المتحدة وغيرها.

و (2) لأن الإحتباس الحراري وإرتفاع درجة حرارة الأرض يفرضان الحاجة إلى المسارعة في الإنتقال إلى إستعمال مصادر الطاقة المستدامة والإستغناء عن النفط، ولهذا السبب نرى اليوم أن هناك تقدم تاريخي غير مسبوق في تقنيات الطاقة الإندماجية والوقود النووي وإستثمار هائل في مجال الطاقة الشمسية والسيارات الكهربائية إضافة إلى مجالات أخرى كثيرة ومتنوعة، ولذلك أيضاً نرى أن أغلب الدول المتقدمة قطعت وعوداً بإستعمال مصادر الطاقة البديلة للنفط وبقطع إنبعاثاتها من ثنائي أوكسيد الكربون إلى

(49) bp Statistical Review of World Energy 2021 . 70th Edition . <https://www.bp.com/content/dam/bp/business-sites/en/global/corporate/pdfs/energy-economics/statistical-review/bp-stats-review-2021-full-report.pdf>

الصفـر بحـلول عام 2050 م.

هنالك العديد من السيناريوهات التي قد يمر بها العراق خلال الثلاثين سنة القادمة على ضوء هاتين الحقيقتين السابقتين، إلا أن جميعها تنتهي بنتيجة واحدة، وهو أن العراق وبعد عقود قليلة من الآن لن يكون له أدنى أهمية جيولوجية أو جيوسياسية بالنسبة لأي من الدول العظمى والمتقدمة، ولن يكون لأي منها الحافز الإقتصادي أو المصلحة الملزمة للتدخل بشأن العراق، حدثٌ سريعاً ما يدرك المتمعن فيه أنه - الأول في التأريخ كله -، فحتى موقعه الحساس بين دولتين كإيران والسعودية لن يعود مهما لأن هاتين الدولتين بذاتهما لن تعود لهما أهمية خاصة في عصر حيث البيانات الضخمة هي نفط المستقبل وكفاءة الثروة البشرية هي محرك الإقتصاد.

وبذلك فإن السنوات 10 - 15 القادمة هي وحدها ما تبقى مفتوحة للإحتمالات وسانحة لأن يحدث خلالها تغيير نوعي بإتجاه معين، فحيث أن من المستبعد قدرة العالم على الانتقال بشكل كامل من إستعمال النفط إلى الإعتماد على الطاقة المستدامة

خلال السنوات العشر القادمة، فإن هناك نافذة
زمنية بين شحة إحتياطيات النفط للدول الكبرى
وبين إجادة تسخير المصادر المتجددة لتلبي حاجة
الكوكب من الطاقة، فترة من الممكن أن يستفيد
منها العراق برفع الإنتاج النفطي لسد الحاجة
الناشئة في السوق والرجوع بعائدات وحصص أرباح
من شأنها أن تولد ثروة هائلة، ثروة تصغر قبالتها
أكبر أحلام كل كاش ونبوخذ نصر جموحا، وتتضاءل
أمامها أكثر مخططات هارون الرشيد ونوري السعيد
طموحا. لكن هذا يمكن أن يحدث فقط إذا تراضى
الناس على مشاركة خيرات الأرض بالعدل والسوية
وبما ينفع الإنسان وكل الرعية، وإذا فهم الناس ما
يستحقون ومن ثم تحركوا بوعي لنيل ما يدعون،
متعاملين مع جميع الدول على حد سواء وعلى أساس
ما يصلح للإنسان داخل العراق.

أما إذا بقينا على ما نحن عليه فمن المؤكد أن
يستمر بنا الحال كما كان وكما الآن، متفرقين يسودنا
الغیر، ومتناحرين فلا يصينا غير الضير، يصعد
منا طاغٍ أو يهجم علينا باغٍ، فيؤخذ الخير بفرض

العقوبات أو ينال بفعل الغزو والهجمات، وما بين هذا وذاك من صنوف الإحتيال وألوان الإستغلال، عن طريق ضعف النفوس وتجنيد اللصوص، تحت غطاء الحرية ومسمى الديموقراطية، فلا ننال في المآل من الشر سلامة أو من الخير أنعامه، فينحدر العراق بعد رواج الطاقة النظيفة، ونفاذ النفط من الطبيعة، إلى فاقة لا تقوم له بعدها قائمة، وتخلف ليس لأي فعل بعدها فائدة.

إن الخروج بتصور واضح عن ملامح الواقع العراقي في العقود القليلة القادمة مع التعرف على الفرص والتحديات التي يمكن للبلد أن يستفيد منها للتطور والمضي قدما، وكذلك تحديد الفترات الزمنية وحجم الزخم للتحويلات الإقتصادية الموعودة، إضافة إلى الخروج بسبل واقعية لتجاوز هذه المرحلة وما سيبدو عليه العراق في حال آتت هذه السبل أكلها، كل ذلك ينطوي على توفر مصادر ووقت وإمكانيات لا تتوفر حاليا لمثل هذا المؤلف، إلا أنها تبقى مسألة مهمة من الضروري أن يتم الإجتهد فيه بالبحث والتوضيح، وأن يتم السعي فيه بالجد

والتنقيح، إذ من المحتمل أن نكون نحن الجيل الذي
يشهد على إنطواء صفحات التاريخ عن واقع كون
العراق ومنذ الأزل إما في موقع المستضعفين أو في
منزلة المستبدين، ومن الممكن أن تتاح لنا الفرصة
ولأول مرة، بأن نبني لأنفسنا وللأجيال القادمة
أساساً لوطن يعتز به الإنسان ويرضاه، ويسعد فيه
المرء ويرتاح.

أمل

حقا ؟!

قد يعتقد الكثيرون أن من الإفراط - بل وحتى من السذاجة بمكان - أن ينظر المرء إلى مستقبل العراق بنظرة التفاؤل والأمل، بعد التعرف على تأريخه الذي يطغى عليه ملامح الظلم والصراع، ويسود فيه عوامل التفرقة والنزاع، إلى الحد الذي لا يمكن أن يشعر معه الإنسان بغير اليأس والقنوط. ومع أن هذا التفكير له مبرره من ذاكرة التأريخ، إلا أن من الضروري أن نفهم أيضا بأن النظرة الشمولية للأحداث تشير على أن العوامل الاقتصادية والجغرافية التي أنجبت وآذنت باستمرار ظروف العراق الصعبة والحساسة على مر التاريخ - والتي تحدثنا عنها بإسهاب عبر صفحات هذا الكتاب -، هذه العوامل كلها ستصبح عديمة الأهمية في واقع العالم الحديث، حيث ينبت الزرع في بيوت من زجاج، ويصبح النفط من دون إحتياج، فلا يهم بعده إلا ما أجاده العراق قبله، من تشييد الأساس، وتطوير الناس، لأرض يعمه من العدل إحساس، ورقيه بقيمة الإنسان يقاس. لذا لا زال هناك مبرر للتحلي بالأمل، ودافع للتخلي

عن القنوط والكسل، إلى واقع لنا فيه صلاح، ولمن
بعدنا كثير من الإفلاح، فقربا لن يحول بيننا وبين
التنعم والإستفادة من خيرات هذه الأرض سوى
أضغان الماضي التي توارثناها وأشجان السابق التي
كابدناها، ومع أن هذا ليس إنكارا لضخامتها ولا
إستصغارا لفجاعتها، إلا أن ربح التخلي عنها لخلقة
بالثمن، وأن عواقب الصفح عنها لجديرة بالألم، لذا
فهلا نبادر للحق وفي الوجهة إبتسامة، ونتحلى بالأمل
والنفس تخلص من ندامة.

شكل الدولة في قولة

بعد كل ما تحدثنا عنه يجب أن ندرك بالنهاية أهمية الإذعان لحقيقة مرة من حقائق تأريخ العراق وتراثه، وهو أنه ليس هناك بين طيات الماضي وأحداثه من وجود لأيديولوجية واحدة فكرية كانت أو عرقية، صُنعت من أجل العراق وحده، أو تطورت فقط لنفع من عاش فوقه، وإنما تمثلت كلها بأفكار موسوعية ذات طموحات إستراتيجية نشأت إما خارج العراق ثم تسللت إليه أو ولدت داخله لكن بهدف التوسع خارجه، وهكذا فإن التمسك بهذه الأفكار والأيديولوجيات بنية التعميم وعلى مستوى سياسة الدولة لن تؤدي إلا إلى صراع في الداخل أو نزاع مع الطرف الآخر، تماماً كما حدث مع صدام عندما أراد أن يكون تجسيدا للحركة القومية التي أنشأها فيصل بعد قدومه من الحجاز، بل وحتى كالنزعة الفكرية التي ظهرت بعد عام 1920م والتي تراءت أول الأمر كأقرب محاولة لخلق حس وطني عراقي موحد كونها ركزت على تمجيد حضارة العراق القديمة والنضال الشعبي المشترك، إلا أنها كانت على ما يبدو

مجرد محاولة لزرع بذور المعارضة السياسية داخل الحكومة العراقية الوليدة، كما يظهر جليا من إنتاجها للحركات المناوئة والمتجسدة بعبد الكريم قاسم وغيره ممن تبنوا هذا الإتجاه ضد الدولة الملكية، ومن واقع كون المستشار البريطانية جيرترود بيل من أكبر المساهمين في نشئتها.

حقيقة أخرى تتضح في الوهلة الأولى من دراسة التاريخ، هو أن العراق لم ينعم يوما من إتباع أي جهة خارجية ولم يسعد أبداً من الإتكال على الغير دون أن يكون له قرار في تبدل أحواله أو سلطان على التحكم في أمواله. لأن الأجنبي سريعا ما يدرك قابليات هذه الجغرافيا المهولة وما يمكن أن يشكله عليه ذلك من خطورة، فيسعى لإبقائها مهزولة، وليس لجعلها شريكة مقبولة، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى، فمن نكوث السلاجقة لعهدهم بحماية العراق، وذلك حين هاجم المغول بغداد فتركوها للغزاة على طبق من فضة بعد أن أقسموا على حمايتها وحماية الخليفة، إضافة إلى ترك الصفويين لها عند قدوم العثمانيين الذين صبوا جام غضبهم

على السكان المحليين فقتلوهم بدل المستعمرين الذين تسللوا عائدين إلى وطنهم في فارس، وأخيرا إلى تخلي الأمريكان عن ثوار الإنتفاضة الشعبانية وتركها إياهم تحت رحمة القصف الجوي لطائرات البعث، مع أن بوش الأب كان هو الذي طالب الشعب عبر الراديو بأن ينتفض ضد نظام صدام.

ما يظهر من جميع هذه المعطيات السابقة هو عدم وجود أي أيديولوجية مركزية رافقت تطور العراق وشعبه على مر التاريخ، مع غياب وجود أي دولة - سواء جارة أو من خارج القارة - يدين لها العراق بالقربى أو المحسوبية، لذا فإن سياسة الدولة المثالية بناءً على هذه العناصر الأولية يجب أن تكون كالتالي :

(1) سياسة داخلية عملية وبراغمية لا تتبنى - على صعيد جهاز الدولة - أي إتجاهات فكرية غير منسجمة مع عموم الشعب والإرث الحضاري للجغرافيا المعنية، كما وتصوغ سياستها على أساس المنفعة الإنسانية والمجتمعية وحدها.

(2) سياسة خارجية تعامل جميع الدول على أساس المصلحة المشتركة وبما يعود على كلا الشعبين بالخير والمنفعة، من غير الإضرار بالطرف الآخر أو الإذعان بالنزول عند مطالبه، وكذلك من غير الإنحياز لأي تصورات موروثة أو مفاهيم منتخبة عند التأسيس لأي تعامل مستقبلي مع الدول الأخرى.

هذه الافتراضات مبنية على حقيقة يجب أن نتذكرها دوما وهي أن الحياة في هذه البقعة التي تسمى اليوم بالعراق، نشأت على أساس واحد فقط، وهو أن الإنسان وجد أرضا صالحة للعيش فقرر أن يقطن فيها ويشارك خيراتها مع أبناء جنسه ليصنعوا معا مما يملكون بين أيديهم أجمل حياة ممكنة. هذا المبدأ بمفرده هو أساس المجتمعات، وهذا التفكير وحده كان أول مجمع للحضارات.

في الختام

في وئام، أتمنى أن تنتهي بنا الأيام، وأن تولد فينا
لحب الناس هيام، ولكل فئاتهم إحترام، حتى لا
يلبث في العراق قلب دام، ولا ظلم عام، بل عيش
يعمه السلام، وأمان طالما الدهر دام، فليس في الدنيا
أفعال جسام، تعدل بكاء الأم على رأس أيتام، أو
حزن الشيب على فقد فتیان، أو حرمان الطفل من
طيب الأمان، والآن، وأنا أختتم سطوري أولى أيام
الصيام، بعد شهور من البحث والإمعان، ورؤية
ما مر على الناس من هوان، وما جار عليهم من
سوط الزمان، لا زلت أوقن أن لا شيء أهم من
الإنسان، ولا أجدر منه بالاهتمام، ما من كلمات
تجزى بالبيان، أو تكفي إمتنان، فمن أجله جاءت
الأديان، ومن جمعه اجتزع الناس إلى أعراق وأقوام،
وبفعله تبدل التاريخ وإنقسم الى أقسام .

وقد يصح أن القلب يتلبد بالحسرات، ويتبدل
بالعبرات، حين ينظر إلى ما إقترفه الإنسان من أهوال،
وما إرتكبه من أعمال، من أجل الحظوة والمال،
فجلب بها على بني جنسه الدمار، وإستبدل التعايش
بلغة الحديد والنار، تاركا على مسرح التاريخ آثار،
وفي نفوس البعض ثأر، من أحقاد تأبى إندثار، حتى
لا مجال معها إلا لأشعال الصراع، أو النزوع لنزاع،
ما يودع في المرء ظنا أن الأوان قد فات، وأن الناس
أشتات، فليس من سبيل إلى السلام، وما من طريق
نحو الإنسجام، إذ نأ في فؤاد الرأفة أورام، وإنتهى أمر
الرحمة بموت دام.

لكن رغم ذلك فقد عاشرنا أقواما، قد أفنوا
أعمارا، وأرخصوا دماء، لنحيا نحن من بعدهم
أحرارا، ولتبدل حالنا بعد العسر إيسارا، ومع
أن الاوان لم يكن لهم سانحا، والطريق أمامهم ليس
واضحا، إلا أن ذلك لم يحجزهم عن سوح النضال،
ولم يمنعهم من طيب الأعمال، فمضوا في الدرب لا
يهمهم المآل، ولا يضرهم كثرة القيل والقال. فما
عذرنا نحن وقد تبدل الحال، وتغيرت الآمال،

فما نبنيه اليوم يمكن أن يدوم، وما نؤسس له من
خير يمكن أن يعم، مضافاً إلى الصلاح ومؤدياً إلى
الأفلاح، لذا فلتجمل بالأمل، ولتجلى بالعمل،
فاليأس ليست شيمة للتحلي، والقنوط لا يصلح
قائداً للتولي، وعلى كل حال فلنا أن نمضي، مدركين
أن مهما واجهنا من القهر، ومهما إعترانا به الدهر،
فلنا من كل عصر من هو مدعاة فخر، ومن كل
قوم من هو كمشكاة بدر، أكثر مما يمكن لأي أن
يدعي، وأقدم مما يمكن لأي أن يرتئي، ليدلنا على
نهج أكمل، وليرشدنا إلى ما هو الأمثل، في خطانا
نحو غد أجّل وأفضل.

المصادر

1 See John Robertson. Iraq : A History. 2015. Oneworld Publications. pp.205

3 See Hans J.Nissen , Peter .Heine . 2009 . From Mesopotamia to Iraq . The University of Chicago Press pp.1-6

5 Joshua J. Mark . (2009, September 02). War in Ancient Times. World History Encyclopedia. Retrieved from <https://www.worldhistory.org/war/>

6 See John Robertson. Iraq : A History. 2015. Oneworld Publications. pp.115-148

7 Andrew Lawler, "Murder in Mesopotamia?". *Science* 317 (2007), pp. 1164–1165

8 Nir Rosen, "No Going Back," *Boston Review*, September–October 2007

10 Britannica, The Editors of Encyclopaedia. "Assyria". *Encyclopedia Britannica*, 4 Mar. 2020, <https://www.britannica.com/place/Assyria>. Accessed 1 May 2022.

11 A. T. Olmstead, "The Calculated Frightfulness of Ashur Nasir Apal," *Journal of the American Oriental Society* 38 (1918). ; H. R. Hall, *The Ancient History of the Near East: from the Earliest Times to the Battle of Salamis* (11th ed.) (London: Methuen & Methuen, 1950), p. 445.

12 Luckenbill, Daniel David, *Ancient Records of Assyria and Babylonia*, Vol. 2. *Historical Records of Assyria from Sargon to the End*. London: *Histories & Mysteries of Man*, 1989 [1926]. p.127

13 See John Robertson. Iraq : A History. 2015. Oneworld Publications. pp 156-241

14 Department of Ancient Near Eastern Art. "List of Rulers of Mesopotamia." In Heilbrunn Timeline of Art History. New York: The Metropolitan Museum of Art, 2000–. http://www.metmuseum.org/toah/hd/meru/hd_meru.htm (October 2004)

15 Steve Jobs. (2005, June 14). "You've got to find what you love," Jobs says. Stanford University. <https://news.stanford.edu/news/2005/june15/jobs-061505.html>

16 Hugh Kennedy . The Prophet and the Age of the Caliphates: The Islamic Near East from the 6th to the 11th Century. 2nd ed., Routledge, 2004. p.116

18 William Montgomery Watt. "Hārūn al-Rashīd". Encyclopedia Britannica, 28 Jan. 2022 <https://www.britannica.com/biography/Harun-al-Rashid> . Accessed 27 April 2022.

19 See Thabit A. J Abdullah. A Short History of Iraq. Routledge, 2010..pp.20-23

20 James Flynn “why our IQ Levels are higher than our grandparents” TED ,March 2013

https://www.ted.com/talks/james_flynn_why_our_iq_levels_are_higher_than_our_grandparents

21 See Andrew Newman, Safavid Iran: Rebirth of a Persian Empire (London: I. B. Tauris, 2009).

22 See Hala Fattah, and Frank Caso. A Brief History of Iraq. Illustrated. Checkmark Books. 2009. p.99

23 See John Robertson. Iraq : A History. 2015. Oneworld Publications. pp.386-415

24 Yitzhak Nakash (1994). The Conversion of Iraq's Tribes to Shi‘ism. International Journal of Middle East Studies, 26(3), p.443. doi:10.1017/S0020743800060736

25 Adeed Dawisha, *Arab Nationalism in the Twentieth Century: From Triumph to Despair* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2003), p. 39.

26 See David Fromkin, *A Peace to End All Peace The Fall of the Ottoman Empire and the Creation of the Modern Middle East* (2nd EDITION. Owl Boks, 1989). pp. 534–536

27 Thabit A. J Abdullah. *A Short History of Iraq*. Routledge, 2010. pp. 100-104.

28 Reidar Visser, “Operation Iraqi Partition,” *Gulf Analysis*, posted 1 September 2010.

29 See Adeed Dawisha. *Iraq: A Political History from Independence to Occupation*. Princeton University Press, 2009. p. 136-147

30 Yevgeny Primakov. *Russia and the Arabs: Behind the Scenes in the Middle East from the Cold War to the Present*, trans. Paul Gould. Basic Books, 2009. p. 2.

31 Charles Tripp. *A History of Iraq* by. Cambridge University Press; 3 edition (2007). pp. 164–177.

32 See John Robertson. *Iraq : A History*. 2015. Oneworld Publications. pp.478-541

33 Black, George. *Genocide in Iraq: The Anfal Campaign Against the Kurds* (Middle East Watch Report). Human Rights Watch, 1993. pp xiii-xiv ; Samantha Power: *A Problem from Hell : America and the Age of Genocide*. 2013. p.188-189

34 Jeffrey Goldberg, “The Great Terror,” *New Yorker*, 25 March 2002.

35 U.S. Senate Committee on Banking, Housing and Urban Affairs, *U.S. Chemical and Biological Warfare-Related Dual-Use Exports to Iraq and Their Possible Impact on the Health Consequences of the Persian Gulf War*, May 1994”.

36 Samantha Power: *A Problem from Hell : America and the Age of Genocide*. 2013. p.235 and passim

37 Ray Takeyh. "The Iran-Iraq War: A Reassessment."

The Middle East Journal, vol. 64, no. 3, 2010, pp. 374-375. Crossref, <https://doi.org/10.3751/64.3.12>.

38 Samantha Power: A Problem from Hell : America and the Age of Genocide. 2013. p. 553 n.64 .

39 Peter Sluglett, "Iraq under Siege: Politics, Society and Economy 1990–2003," in From Desolation to Reconstruction: Iraq's Troubled Journey, ed. Mokhtar Lamani and Bessma Momani (Wilfrid Laurier University Press, 2010), pp. 16-19.

40 Francis Fukuyama, The End of History and the Last Man (New York: Free Press, 1992).

41 Patrick Cockburn. Muqtada Al-Sadr and the Fall of Iraq. ed, Faber and Faber, 2008. p.69

42 John Mueller and Karl Mueller, "Sanctions of Mass Destruction," Foreign Affairs 78 (1999), pp. 43–53.

43 John Robertson. Iraq : A History. 2015. Oneworld Publications. pp.579-580

44 National Commission on Terrorist Attacks upon the United States, The 9/11 Commission Report: Final Report of the National Commission on Terrorist Attacks upon the United States (New York: W. W. Norton, 2004).

45 Zizek, Slavoj. Iraq: The Borrowed Kettle (Wo Es War Series). First Edition, Verso, 2005. p. 5.

46 Anthony Shadid, "U.S. Commander Fears Political Stalemate in Iraq," New York Times, 29 August 2010

47 The public record of violent deaths following the 2003 invasion of Iraq . <https://www.iraqbodycount.org>

48 U.S Energy Administration Iraq Report , updated 24 February 2021 . <https://www.eia.gov/international/analysis/country/IRQ>

49 bp Statistical Review of World Energy 2021.70th Edition.

<https://www.bp.com/content/dam/bp/business-sites/en/global/corporate/pdfs/energy-economics/statistical-review/bp-stats-review-2021-full-report.pdf>

فهرس



5	إهداء
7	نبذة عن المؤلف
9	المقدمة
13	تمهيد
17	الناس والأرض وما بينهما
19	بادئ ذي بدء
20	من الصيد إلى السيادة
30	فيها من بعض الخير ما فاض، ومن بعضها هي خالي الوفاض
35	وقفة تأمل وإستنتاج
37	بعض النقاط على الحروف
45	من المهد إلى ...
47	التأريخ يبدأ في سومر
51	بداية ظهور العوائل الحاكمة
54	أكد وما أدراك من أكد، حقا من هم ؟

56	بابلٌ من القبائل
59	لا يمكن الحديث عن بابل من غير حمورابي
63	لا أهرام ولا عمران، في السابق أو الآن؟!؟
67	العراقي لا ينفع معه إلا القوة؟! آشور قد تتفق
75	إلتفاته قبل الختام
79	ما بعد الميلاد وما قبل المعتاد
81	كيف ينتهي الطغاة، فقرة برعاية الأمويين
91	ما حل بالمقاومة وبحلف المعارضين
94	العراق يفقد موقعه من مركز الصدارة
104	حرب طائفية و قتل على الهوية، في عام 971 ميلادية!
110	في السياسة : ما يأتي من الغير ليس بخير، مهما بدا عديم الضير
114	العراق في عصر -إمبراطوريات البارود-
124	التشكل الديموغرافي المعاصر لمحافظة الجنوب
127	من أرق الأمان إلى عراق الآن
129	ولادة العراق الحديث بين التشوه والإجهاض
138	أن يكون النفط أو لا يكون، هذا هو السؤال
142	محاولة خلق حس وطني للعراق

149	أنظر لكل الفئات، أيعجبك أي الجهات ؟
159	مد وجزر، من قاسم لبكر
163	بدايات صدام وملحمة العشرين عام
167	بوادر حرب ومدعاة كرب
169	الحرب الباردة والأحداث المتصاعدة
173	نقطة اللاعودة
182	من المحارب إلى المحارب
188	عاصفة الصحراء
193	ويلات العقوبات
200	الإحتلال الأنجلو-أميريكي
208	أما بعد...
212	الوضع الحالي، فرص وتحديات
223	أمل
225	حقا ؟!
227	شكل الدولة في قولة
231	في الختام
235	المصادر

علي عباس عمر عراقي

بعد سنوات قليلة ولأول مرة في التاريخ, سيفقد العراق صفته كمصدر حيوي لثروة الحضارة الرئيسية, بالإضافة إلى موقعه كثابت تاريخي لموارد حيوية بالغة الأهمية, فبعد أن يتلاشى السوق العالمي للنفط, سندخل إلى عصر حيث الثروة البشرية والبنية التكنولوجية هما ما يحددان واقع الأمم وأهميتها, وليست الزراعة أو النفط. وفيما إذا شكل ذلك فرصة لبنى العراق إقتصاده حول شعبه وأناسه, أو مثل عارضا سيجلب له حتفه وخرابه, فذلك متوقف على الخيارات التي نتخذها اليوم, خيارات تحتاج إلى فهم صحيح للحاضر, وإستيعاب لماض

ليس كما نظن ب "غابر"

